سعد الدين الحبال

ضحايا...

مجموعة قصص

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى من أخذ بيدي يوم كنت أحبو فدرجت . . .

إلى من غرس في نفسي هواية الأدب وحب البيان . . .

إلى من روّض لي القلم ولم ينتظر ليراه ينطق في يميني . . .

إلى الخالد في السماء ، وفي قلبي . . . إلى والدي محمد خير الحبال

أهدي باكورة إنتاجي الأدبي !

صيدا — شباط ١٩٥٤

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

كنت مغرما في صغري باصطياد الأسماك من البحر ، أقدمها لوالديّ هدية متواضعة . وكان البيت والبحر والعائلة كل عالمي الصغير آنذاك . أمـــا الآن وقد تمدد ذلك العالم حتى شمل الانسانية والكون بأسره ، فانني اصطدت بضعة قصص من بحر المجتمع ، أقدمها للقراء غذاء لأرواحهم الذوّاقة .

وللقراء في القصة رأي . انهم لا يريدون الأدب لنفسه ، حتى ولو كان في قفص من ذهب أو شرنقة من حرير . بل يريدونه تصويراً لواقعهم وتعبيراً عما يعتمل في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس . إنهم لا يريـــدون القصة بوليسية أو خلاعية تستثير غرائز الناشئة . بل يريدونها حكمة في كأس تسلية ، وشهداً لذته فائدة .

وفي مجموعة القصص هذه ، يجد القراء بعض ما يريدون . إذ استقيت حوادثها من الحياة نفسها ، عارضاً بأسلوب للقارىء ان يحكم عليه ، صوراً مـن مشاكل المجتمع وبلاياه . ولم أنصب من نفسي واعظاً أرشد الناس إلى السبيل الذي به يحلون مشاكلهم هذه . فلكل رأيه . واحترامي للجميع .

المؤلف

obeikandl.com

ضحايا

كانت الأمواج تعزف على صخور الشاطىء لحن الخلود . . وكان الزبد الأبيض يتألق كالماس في أشعة الشمس . . . ومن نافذة احدى الغرف المشرفة على البحر في منزل الاستاذ كامل نور ، كانت تطل فتاة مشرقة المحيا ، بهية الطلعة ، ريانة الغصن ، وكانت تتوجه بنظراتها الحالمة إلى الأفق البعيد . ولم تكن ترى شيئاً لأنها لم تكن تنظر إلا إلى أفق خيالها الرحب . كانت تقرأ هناك ، في تموجات النور ، قصة حبها الخالد . وكانت ترى خلال الاسطر الشفافـة ، صورة حبيبها سعيد . . .

واسترسلت في أحلامها العذبة ، فراحت تتابع حوادث قصتها بنشوة ، وقد اعترى أعصابها تخدر لذيذ .

كان ذلك في العام الماضي ، عندما اجتمعت العائلة الصغيرة ـ المؤلفة من الاستاذ كامل وزوجته وابنتها منى ـ اجتمعت الاسرة حول بهية وابنها سعيد حوملي . وبهية هي ابنة عم الاستاذ ، وفدت من صيدا إلى بيروت . فلقد أتم ابنها تحصيله الثانوي ، وضاق به ميدان العمل في بلدته ، فجاءت به إلى بيروت عساه يجد فيها مرتزقاً . ونزلت على بيت نسيبها الاستاذ كامل نور ، علـه يساعدها في الحصول على عمل لابنها وشقة لسكناهما . فاجتمعت الاسرة حول الضيفين مرحبة متهللة .

ودار الحديث حول شؤون وشؤون . . . وسعيد في صمت عميق . انه على

وجوم ذاهل ، لا يكاد يعي ما يقال ، إذ لا شيء من ذلك يهمه . ما له ولتفاهة الاحاديث . غير ان الكلام ما لبث أن تطور ، ودار حول ضحايا المجتمع . فصحا سعيد وقد أصابته الرعشة . واصاخ بأذنيه إلى الحديث . وما لبث ان اشترك به . ولم يمض وقت حتى انفرد بالكلام . وكانت الكلمات تتدفق من فمه كالسيل الجارف ، في قوة طاغية جامحة . واثارت آراؤه إعجاب الجميع . فانصتوا وكأن على رؤوسهم الطير .

وكانت منى لا تزال فتاة منطوية على نفسها . فلم تنتبه بادىء الأمر الى حديثه . بل لم تنظر اليه الا النظرة العابرة . ولكن حديثه الرزين ما لبث أن غاص في نفسها الى الأعماق . فرفعت رأسها ونظرت . . . من ذلك المتكلم في قوة وحماس ؟ ! ودققت النظر . . . انه شاب في مقتبل العمر ، معتدل القامة اسمر البشرة واسع العينين ، عميق النظرة . ان هذا الشاب على قسط من الجمال . فهو يستحق أن تستمع الى حديثه ، واستمعت اليه ... واحست لكلماته في نفسها تأثيراً غريباً ، وطاب لها الاستسلام لنفوذ إرادته الطاغي .

وتكررت زيارات سعيد لهم ، لقد وجد عملا ومسكناً . وقد اطمأن إلى عمله كمدرس في احد المعاهد الاهلية ، وطاب له ان يكثر من زياراته لبيت كامل نور ، كما طاب له ان تجتمع العائلة الصغيرة حوله تنصت الى حديثه باهتمام .

أما منى ، فقد كانت تجد لذة كبرى في الجلوس أمام هذا الشاب اللبق الحديث ، والاستماع لكلامه في تأثر وانتباه . وذات مرة بادرته بقولها :

— أراك تكثر من ذكر ضحايا المجتمع . . . ألا تسرف في ذلك ؟ !

وقد استغربت من نفسها ذاك السؤال . غير انها في الحقيقة لم تكن تريد إلا محادثته واسترعاء انتباهه . وكان لها ما أرادت . إذ نظر الشاب اليها نظرة طويلة عميقة فاحصة ، ثم قال بتأن وهدوء :

— أجل ... سنظل نذكر الداء حتى نجد له الدواء . سنظل نذكر الداء حتى يثير في قلوبنا نار الحقد المقدس عليه . سنظل نذكر ضحايا المجتمع المتفسخ

حتى ننقذهم أو نموت ... وكان الله ولي المصلحين !

ولم تدر ما أجابته آنذاك . غير ان كل ما تذكره هو ان أحاديثها معه ازدادت ، وان الشاب أصبح يوجه معظم كلامه لها لا الى العائلة ...

ومضت الأيام حاملة معها من الامور الحسن . فتوطدت الصداقة بين منى وسعيد ، ثم تحولت الى حب جارف عنيف . وربطت بين قلبي الشابين عهود صامتة خرساء ، ما لبثت أن غدت صارخة داوية ، ولم تعدتطيب الحياةلمنى بدون سعيد ... ولم يعد العيش يهنأ لسعيد الا بمنى . . !

* * *

— منى ! يا بنت ! أين أنت أيتها المنحوسه ؟

وظل هذا الصوت يدوي في البيت وهو يزداد عنفا مرة بعد أخرى . إلى أن استطاع أخيراً أن يوقظها من ذكرياتها الخضال .

— أين كنت ايتها الخبيثة ؟ ساعة مضت وأنا أناديك !

فارتبكت منى وأجابت بصوت خافت :

ـ لقد كنت نائمة يا بابا !

غير ان الاب الغاضب أجاب بصوت نصف مقتنع :

ـ كذابة ! لم تكوني نائمة !

فارتعشت . . ! ترى . . . هل توصل إلى معرفة ما كانت تفكر به ! ان هذا مخيف . . . فالاب كان دائماً يحذرها من ذلك الشاب . انه فقير . وهو لا يملك رأسمالا ولا زعامة . فليس لفتاته ان تحب من ليس بذي غنى . وقد كانت أمها دائماً تجلس إلى جانبها لتسرد لها ما بنته من آمال حول مستقبلها . وكانت تحلف لها « برأس النبي » انها لن تزوجها إلا من ثري موسر أو زعيم وجيه . وكانت هي منقادة إلى تعاليم أمها وأبيها ، فتضع فتى أحلامها في قصر من الذهب الاصفر البراق . وتمضي في نشوة تحدق من منظار أحلامها ، في بريق ذاك الذهب الساحر . وتنسى أن تنظر ولو لحظة ، إلى وجه فتاها أو أخلاقه ومزاياه .

غير ان سعيد ، بعد أن تعرفت عليه ، هوى بمعول مفهوماته الصحيحة على أساس قصرها الذهبي فدكه . فلقد أفهمها ان كل قصر ذهبي انما يبنى على اساس من الجماجم ، ويجبل بالدماء والدموع . . .

إطراق وصمت وسكون . . . انه السكون الذي يسبق العاصفة !

واندفعت العاصفة ، في نفس منى لا في نفس أبيهـا . ولكن ... ما الذي حدث ؟ ان الوالد قد تكلم. وكان كلامه رهيباً ... رهيباً على قلب منى ! فبعد أن أطرق هنيهة عقب حديثه السابق ، وبرد غضبه العابر ، قال بتأن ورزانة ، لكأن كلماته هي الجواهر :

- لقد أصبحت « صبية » يا منى !

وصمت ليرشق ابنته بنظرة باسمة متخابثة ، ثم أردف :

- أنت تكثرين من النوم لتكثري من الاحلام : وأنا أعلم بماذا تحلمين... ولذلك « دبرت » لك عريس أحلامك المنشود !!!

ورفع رأسه ليرقب أثر كلامه فيها ، فرأى وجهها يصفر ويحمر ، بينما أهدابها الطويلة تحاول أن تخفي نظرة التساؤل في عينيها .

فقهقه وهو يربت على كتفها بعطف ثم قال :

- لولا الحياء لسألتني عن اسمه ...

ثم انحنى على أذنها يهمس :

- انه جميل اللحام !

فأرادت ان تبكي ... وأرادت أن تثور ! وزاد على عذابها صوت أبيها الضاحك وهو يقول :

- « مبروك » يا منى !

مبروك ... على ماذا ؟.. أعلى أحلامها الضائعة... أعلى سعادتها المحطمة... أعلى قلبها الذبيح ... !!!

وأخذ صدرها يعلو ويهبط بالعاصفة . واختنق صوتها وهي تتمتم :

ـ لا أريد أن أتزوج ...

فحمل ابوها ذلك منها على محمل الخجل وقال برقة :

ـ أمن والدك تستحيين ؟ !

وأرادت أن تعبر عن افكارها فما وجدت من الجـأش مسعفاً . وشعرت بكيانها يهتز مع أعصابها المتوثبة . فركضت إلى غرفتها ، حيث ارتمت عـلى سريرها تنشج في البكاء ...

* * *

وأمام عمارة تشمخ على جيرانها في حي المصيطبة ، وقفت سيارة براقـة ، فنزل منها كرش ضخم يحمل رأساً رجراجاً ، وصرخ السائق باحترام :

ـ مع السلامة جميل افندي !

وعدل الافندي من وضع كرشه المحترم ، واستخرج من جيبه ساعة ذهبية نظر فيها ، ثم أجاب دون أن يلتفت :

ـ الله يسلمك !

وما ان دخل شقته ، حتى ركضت اليه عجوز أكل عليها الدهر وشرب ومضت تحييه بشوق :

أهلا وسهلا يا حبيبي ... لماذا تأخرت عن الغداء ؟ ! ألا تراعي صحتك ؟

فرشقها من عينيه الحولاوين بنظرة استنكار وهو يقول :

ـ كيف .. ألم تعلمي انني كنت مدعواً إلى الغداء في بيت الاستاذ كامل نور ؟

فضحكت العجوز بخبث وهي تسأل :

ألم تر العروس يا بني ؟

فانبسطت أساريره وهو يهمس :

ـ كلا ... ولكنني شعرت طوال الوقت بعيون تتلصص علي من شق الباب ..

فقهقهت العجوز وصاحت بمرح :

لقد علقت السمكة بالصنارة !

ثم أردفت بصوت حالم

— ترى ... أيمهلني الأجل إلى أن أرى أطفالك ... وهل سيكونون بمثل جمالك ...

فصرخ باستنكار :

— ما هذا الكلام يا أماه ! إنك لا تزالين « صبية » ! !

وساد السكون على البيت وقد أطلق كل منهما لخياله العنان . إلى أن قطعت الام حبل الصمت فجأة :

— إن الاستاذ كامل طامع في ثروتك الغزيرة ومخازنك العديدة . ولكن صفقتناهي الراجحةلان ابنته سترث البستان الذي يملكه في صيدا . وسيؤول اليها المنزل الذي يسكنه ...

فابتسم جميل وأخذ يربت على كرشه . ورفع يده يتحسس شاربه المحلوق ثم ردد بتيه وفخار :

— إنني أفكر بمشروع خطير . فالمتاجر لم تعد تقدم الجزيل من الارباح . ولذلك سأقوم بإنشاء معصرة للبرتقال ، عساها تصل بثروتي الى المليون ... أما البضاعة فستكون من بستاننا المقبل ... أي بستان كامل نور اليوم !

وأخذت الاحلام تنثر عبيرها في جو المنزل . ومضت تستبق السنين وتنهب الايام ..

وكانت الاحلام تنثر عبيرها في جو منزل آخر ... حيث كان الاستاذ كامل وزوجته يتمتعان بالاوهام . وكانت الزوجة تقول :

إن أموال صهرنا لا تحصى ، وسنشتري بالمهر بستاناً جديداً ...

وكان الزوج يهمس :

إن جميلاً في مثل سني وربما توفي قبلي . عندها أرث جميع أمواله وأملاكه .

وهكذا تم الاتفاق على صفقة الزواج تلك ، بعد أن فكر الطرفان في كل شيء إلا المنى ـ صاحبة العلاقة الاولى . ومضوا يعدون العدة ليوم الزفاف متخذين

من المصلحة رائداً ومن المادة دليلا ! وقرأت الفاتحة ، وعقدت الخطبة .. ونشط تحضير « الجهاز » !

وكانت منى مغلوبة على أمرها ، تبدي الرأي فتنهرها الام ، وتعترض فيصرخ الاب :

— ليس هذا «شغلك». لا فتيات لدينا يعارضن آباءهن.

فتنطوي على نفسها ذليلة مهانة . وتحس بالثورة في أعماقها تصرخ :

- شغل من إذن ؟ ! ومن الذى سيتزوج ! أهو أبوك؟ !

ولكنها لم تكن تجرؤ على معارضة ذويها وقد نشأت على احترامهم . فكانت كلما خلت الى نفسها تمضي تقارن بين حبيبها سعيد وخطيبها جميل ... فتسعر المقارنة في نفسها نار العذاب . وتنقم على المجتمع الفاسد المسلول ، هذا المجتمع الذي يعيش في أكفان الماضي وتقاليده ، ليقف حجر عثرة في طريق الشباب المتطور . ويثور صباها الغض على القيود البالية .. فتحلم بمستقبلها حسبما تريده، وتحلم بسعيد حسبما تشتهيه !

* * *

وكانت الايام تمر سراعاً ... وكأنما لا هم لها الا الوصول الى موعد عقد القران ! وعلى نار الغضى كان يتلوى سعيد ... فأمام عينيه تمت صفقة بيع منى، وأمام عينيه انشقت بينه وبينها الهوات . وأحس أن زياراته لبيت الاستاذ كامل أضحت غير مرغوب فيها . فانقطع وفي قلبه غصة الحرمان . ومضى يمزق الأيام وتمزقه ... وقد أفلح في ذلك الطرفان . وأخذ يغرق نفسه في العمل حتى أذنيه لينسى داءه الفتاك ، فما استطاع النسيان . وأصابه الذهول فعجز عن التدريس وقد كان فيه على امتياز . وتسلل اليه الهزال بعدأن كان في الصحة من الاشبال . فهاجت به على التقاليد نقمة ... وعصفت به على الرجعية ثورة .. فتمنى لو أنه لم يولد ... وتمنى لو أنه يموت .. ! وتاق الى تحطيم كل شيء .. ودعا الله ليهلك الناس بطوفان ..! وكم تمنى وكم أراد .. غير أن الواقع ظل هو الواقع ..

وأخذ يوم القران في الاقتراب !

وفي ظلمات اليأس المحيقة به كان يرى بصيصا من ضياء . لقد كان يحس لثورته اللاهبة في قلب الحبيبة صدى . وقد كان يشعر أن في عينيها نداءً غامضاً . واشتد به القلق وعذبته الحيرة . فجلس ذات ليلة يخط لها أول رسالة . وما أن أتمها حتى مزقها ليكتب ثانية . ومضى يكتب ويمزق .. الى أن لاحت تباشير فجر جديد . وكأنما أوحت له وورود الشفق بغيته . اذ استقر على ما انتهى اليه، وأودع ما خط الغلاف .

واستلمت رسالته ، فوجدت فيها المخرج لعذابها الثائر الحبيس .

وتواعدا على اللقاء ...

وضحكت حديقة الصنائع وهما يدخلان .

والتفتت منى تهمس لفتاها وقد ضاء وجهها بالاحلام

ـ لن أكون إلا لأحد اثنين .. أنت او عزرائيل !

فحدق في عينيها بحنان ، وطوق خصرها بذراعه وهو يقول :

ـ لن تكوني إلا لي ... حبنا أقوى من الموت !

فغرد بلبل على أحد الافنان . وعزف النسيم على بضع اغصان . وحومت حولهما فراشة حسناء .. والتصقت منى بحبيبها تتساءل :

ـ سعيد ... متى تتحقق الاحلام .. !؟

ومضيا يتناجيان .. وطفقا يتهامسان ..

* * *

اخذ القمر يختال بين نجوم السماء ، ومضى يسكب على بيروت الغافية ذوب الفضة في سحر الضياء . واذا به يختبىء فجأة وراء غمامة شفافة ، ليخفي عن الناس شبحاً انسل من احد منازل المدينة ، ومضى يعدو في الشارع نحو شخص قاده الى داخل سيارة ، اقتعدت ظل جدار . ودوى الليل بزئير محركات ... ثم بدا القمر من جديد ، يغمز الشارع الخالي بطيبة ودهاء !

وكان الهواء البارد يندفع إلى داخل السيارة بعنف وقوة، ليفرق بين شخصين التصقا في عناق . وهمس صوت يسأل في رعشة المقدم على المجهول :

– الى أين نمضي يا سعيد ؟ ؟

فضحك بنشوة وهو يجيب :

– الى حيث نتزوج يا مناي !

واتحدا في قبلة طويلة ... ثم التفت اليها يقول :

– اراك احضرت « صرة » ضخمة فما الذي فيها ؟

فغردت بمرح :

– إنها « الجهاز » ! لقد حضروها لتكون ثياب عرسي ... وستكون !!!

فأطبق على ثغرها من جديد ... ثم غرقا في صمت ترفرف عليه الاحلام !

وتصورت أمها تنهض في الصباح لتكتشف فرارها وتركض إلى زوجها تولول بالنبأ الرهيب ، وتصورت أباها يرفس الارض ويلطم الهواء وهو يرغي ويزبد ويلعن جنس « البنات » . ثم تصورت جميل يعتصر كرشه ليزور ما بين حولاويه وقد اكتشف ضياع العروس « والجهاز » ...

فترنحت على ثغرها ابتسامة ، وتلوت في عينيها دموع ... ثم التفتت بخيالها نحو المستقبل ، فرأت سعادتها في القران بحبيبها وشقاءها في البعد عن أهلها والعداء معهم . وهكذا مضت البسمة تستنزف الدمع من عينيها ، وكان على وجهها صراع ... بين الالم واللذة !

ومضى سعيد بدوره يحلم بساعة القران ، ويتصور حبيبته بين ذراعيه حليلة ، يتحد معها في رقصة الحب الحمراء ... وكان يتصور آيات حسنها تملأ عينيه وقلبه وعبير سحرها يسكر روحه وفكره ، وهو ينهل من كؤوس خمرتها شهد اللذة ، ويرتشف من رحيق سنائها ذوب الهناء .

وكانت السيارة تندفع في جوف الليل ، وكأنها الشهاب الثاقب ، مجلجلة صاخبة ، تعلن للناس تمرد الحبيبين على تقاليد الناس ...

وكان يرن في اذني سعيد صوت امه آمراً ناهيا :

ـ دعك من منى يا بني . ان لك في النساء خيراً منها وأجمل ...

وكان يدوي في سمعها صراخ أبيها الغاضب :

ـ أنت طفلة يا قردة ... فلا تندفعي مع هوس الصبا وغواية الشيطان ..

ولقد تم ما نهى عنه الوالدون . وثار الشابان على ارادة أهليهم ، ضاربين بالعرف عرض الحائط ، متخذين من الهوى مركباً ومن العاطفة رائداً ، ومضت بهما السيارة حتى إذا ما وصلت صيدا ترجلا منها إلى منزل صديق كان قد اخلاه حسب سابق اتفاق . اما السائق الذي كان صديقاً حميماً لسعيد ، فقد رجع إلى بيروت يدعو للحبيبين بطول الهناء .

وما أن وجد العاشقان نفسيهما وحيدين تحت سقف واحد ، حتى صبغ الحب والانفعال وجهيهما بالارجوان ، وعقد الحياء والشهوة لسانيهما بقيد صراع .. فرفع إلى وجهها نظرات حنين ، ما لبثت أن تغلغلت في أعماق لحظيها الفاتكين . وتكلمت العيون . وتعالى زفير النار من القلبين ... فما وجد نفسه الا وهو يحتضنها بجوع محروم ، منهالا عليها بسيل من القبلات . فاستكانت ثم نفرت ثم استكانت مجهشة في البكاء ! وجعل جسدها يهتز بين ذراعيه بالعواطف المتناقضة ، فضربت على بصره غشاوة ... ثم انجليت وقد كاد يهم بأمر ! وومض في رأسه خاطر وثارت في نفسه مروءة ، وانتفض ضميره من غفوة .. فانفلت والعرق يغسل جبينه ، وانتصب امامها يرتعش خجلا ورهبة ! ثم همس بلسان يتلعثم :

ـ نامي يا حبيبتي الآن ... وغداً احضر الشيخ ليعقد القران ..

واستدار مبتعدا عنها وكأنه يهرب من خطيئة ، وتوارى في الظلام تلاحقه أشباح ما كاد يقترف من زلة ! واستكان الى سرير ينشد النوم فعصاه الوسن . وثقل عليه الليل وأفزعه الدجى .. وتراءت له في الحلك صور واشباح تفغر أفواهها متطاولة ... وتناهى إلى سمعه فحيح افاع ، وازيز نيران ... فكاد يصرخ وكاد أن يجن ! ثم عاودته الرغبة طاغية جامحة ... وانبثقت من الظلمات

صورة لمنى تسيل مفاتنا وتنضح شهوة . وسمع صوتا يهتف به ان أقدم إنها لك ..
فكاد أن يقفز من الفراش ليجترح المعصية . . لولا أن صفعت اذنيه قهقهات
ساخرة ، وأحاطت بصورة حبيبته أشباح شياطين سوداء مفزعة ! فأغمض عينيه
يتحاشى الرؤية .. ووضع في أذنيه الاصابع حذر السمع ، فما هاله إلا ان
ظل يرى ويسمع .. وظل يتعذب ويتلظى ..

وأخيراً تداعت أعصابه المرهقة في غفوة مضطربة .. تمزقها أحلام محموم ..

* * *

فتح عينيه على يد تداعب وجهه بحنان وصوت يهمس :

ـ قم يا حبيبي فقد انتصف النهار ...

فأشرق وجهه بفيض هناء ، وقفز من السرير يضحك للسعادة ، وإذا به يسمع منى تسأله :

ـ كيف بت ليلك يا سعيد ؟

فارتعش وقد عاودته الذكرى ، ثم طرد أشباح الليل وأجاب :

ـ على احسن حال يا مناي !

وحاول أن يثور على روع امسه . وأراد ان ينتقم من هول ليله .. فأحاط
خصرها اللدن بذراع .. وادنى رأسها بيد .. واطبق على ثغرها بفم ملتهب ،
ثم جذبها إلى السرير وقد هاجت به الرغبة الملحاح ، فانفلتت منه مطرقة هامسة :

ـ ألا تحضر الشيخ اولا ...

وإذا بالباب يقرع باصرار ، فنهض يلعن مزعجه ، وإذا بصديقه سائق السيارة
يناوله رسالة مختومة وهو يقول :

ما ان علمت امك بفرارك مع منى حتى جاءتني تلح وتستعطف راجية
ايصال هذه اليك ... ولكم حاولت انكار معرفتي بمقرك ، غير انها جزمت انني
على علم بالمؤامرة ، وألقت إلي بالرسالة وانقلبت راجعة .

فشكر سعيد صديقه على ما تجشم ، ثم كر عائداً إلى حبيبته بعد ما اغلق

الباب باحكام . فسألته مني عن الخبر فما اجاب . بـــل مزق غلاف الكتاب وطفق يقرأ ...

وادلهمت سحنته ... وتتالت على طلعته الوان قوس قزح ، وارتعشت يداه بثورة خفية ، فسقطت منه الورقة تهتز على الهواء .

وعادت مني تسأله عن مضمون ما قرأ بلهفة ، فما اجابها الا بنظر يضطرم بالجنون .

وحاولت التقاط الرسالة عن الارض لولا ... طلق ناري دوى في المنزل ، سقطت على اثره تتخبط في الدماء ..

وادار فوهة المسدس إلى صدره ، ثم ضغط على الزناد من جديد ... فدوى في المنزل طلق آخر ، القاه جنب حبيبته .

التفتت اليه والدماء تنزف من صدرها الجريح ، تصوب اليه عينين اشتعلتا بالالم والفزع والتساؤل .. فأشار إلى الورقة وقد صبغتها دماؤها ودماه ، فأدنتها إلى وجهها بيد يهزها النزع الاخير ... وقرأت :

« تصلك رسالتي هذه بعد ان اكون انتهيت ...

« فقد انتحرت هربا من الذل والعار ...

« لا تتزوج منى ... لا تتزوج اختك ...

« لأنك ابن كامل نود من زلة لي في صباي ... »

« امك »

obeikandl.com

obeikandl.com

حسناء الترام

لن أذكر لك كيف ولماذا ، فما أنت علي بوكيل ! المهم أن تعلم أني ركبت « الطنبر » ذات يوم .. ماذا .. ؟ أعدت تتساءل ؟ ألا تعرف أن « طنبر » بيروت هو الترام .. ؟ بالله عليك لا تقاطعني كلما بدأت الحديث . فما الذي نفعله في سهرتنا هذه إذن ؟ لئن كان الصمت من ذهب فالكلام من « اورانيوم »!

ركبت الترام ذات يوم من « البرج » الى « المنارة » . ولأكن أمينا على الحق فأقول اني تعلقت به ، إذ كان على عهدنا به مزدحما بالمخلوقات وكأنه علبة السردين حشرت فيها « الفراخ » بعنف وعناد . ثم حزمت شجاعتي ومرونتي وجسمي الهزيل القصير ، قبل أن أخاطر بالدخول الى معصرة الزيتون الماثلة ـ أعني جوف « الطنبر » او الترام لا فرق ! حقاً لقد كانت مهمة صعبة تستلزم خبرة عميقة في استراتيجية الكفاح وتكتيكه ، اذ مضيت اشق دربي بين الأجساد المتلاصقة المتلاحمة . فأدفع هذا وامر من تحت إبط ذاك ، واتلقى احدث الشتائم من فم ذياك . وشتائم بيروت كما لا يخفى عليك ، حية متطورة مثل ازياء نساء « باريس » ، يطلع عليك كل يوم بجديد منها وطريف ! اما انا فلم ترعني تلك الشتائم تنهال علي من كل حدب وصوب . فالشاعر قد قال للناس ولي ـ لا بد دون الشهد من إبر النحل ! وكان الشهد متسعا لقدمي في قلب الترام ، قرب كرسي اقف إلى جنبه منحزاً ، حتى اذا ما نهض الجالس عليه احتللته بحرب الصاعقة . وبعد الكفاح البطولي العنيد ، حصلت على ما كنت احلم به ، باستيلائي على موقع استراتيجي هام ، بين مقعدين تربعت على احدهما عجوز منتفخة ، لكأنها

obeikandl.com

اختزنت في جوفها كل ما تنفست في حياتها الطويلة من هواء ، وفي حجرها كانت تجثم « صرة » ضخمة ، جلس عليها طفل اضخم منها ، فعجبت لمعجزات الدهر كيف تمت احداها بمرور تلك من باب الترام الضيق ، وادركت توا ان جارتي قديسة . إذ كيف تسنى لها لولا ذلك ان تشق الزحام بهيكلها الضخم وحملها الهائل ، وتصل الى شاطئها الامين على ذلك المقعد المحظوظ . بينما انا القزم الضئيل الجسم ، ابليت في الحرب شر بلاء ، حتى ظفرت على شبه متسع وقفت فيه على قدم ونصف . وشعرت بميل جارف الى محادثة تلك القديسة ، فالتفت اليها مبتسما مواسياً مهنئاً ، اعزيها بما فقدت في صراعها مع الزحام من شحم ، واهنئها بما حازت عليه في النهاية من نصر مبين . غير انها اجابت بكل بساطة ، انها من المناطق جاءت ببيروت فركبت الترام منذ الصباح ، آن لم يكن فيه مخلوق . وظلت فيه ، رائحة غادية معه ، تتفرج على بيروت من شباكه ، وتمتع حفيدها بمناظر العاصمة . وكأنما ابتسامتي اغرت تلك « الغادة » ابنة الثمانين . فوقعت في حبائلي . وشعرت بجسمها يتمدد على المقعد شيئاً فشيئاً ، حتى لاصق اجنبي في نداء . وتملكني الغرور وانا المس افتتان تلك الانثى بي ــ وهي انثى على كل حال ــ فنظرت حولي بتيه وخيلاء . لولا ان شيئاً من النفور وشيئاً من خوف هزء الناس عاد فطغى علي ، فابتعدت عنها قليلا ، واذ بي ارتطم بقطعة خشب . فالتفت في استطلاع وحنق ، لارى ان جاري الثاني مخلوق طويل هزيل ، يجلس على مقعده بين الواح من الخشب وعدة سلال فيها ادوات وبضائع . فهداني التفكير الى انه نجار . ولم اجرؤ على سؤاله كيف تم له دخول الترام ، بعد ما سمعت قصة جارتي الضخمة . وكأنما استطاع ان يقرأ ما كان يجول في راسي من تسآل ، اذ انفجر يشتم ويدمدم ، معلناً بطريقته الخاصة ، انه استقل الحافلة منذ وقت طويل ، في طريقه الى مكان عمله في « باب ادريس » . لولا ان الزحام حال بينه وبين الخروج ، فربض في مكانه لا يحيد عنه ، والترام يخترق به بيروت من اقصاها الى اقصاها عدة مرات ، وهو في مقعده ينتظر نصر الله والفتح .

ومضى « الطنبر » يهتز ويتهادى كبغلة النوري ، زاحفا بنا في شوارع بيروت ببطء سلحفاة ، يلاحقه عواء رتل من السيارات عرقل عليهـا المرور . وتذكرت فجأة يوماً من حياتي ركبت فيه الزورق البخاري . وكان هـذا يصارع جبال الامواج في غرور . بينما كنت ومن معي على شفير هاوية . نهتز مع زورقنا في رقصه الارعن على غضب البحر ، ونستعطف الله خوف النهاية .

ذكرت كل ذلك والترام يرقص بنا في شوارع بيروت . فتساءلت هلعاً ترى أي بحر يصارع؟ ولم أكن في حاجة الى جواب . فقضقضة عظامه كانت تعلو كل ضجيج . والحق يذكر أني كنت خائفاً على رأسي من انفراط عقد العربة . لولا أن رأسي كان بين رؤوس ... فلا ضير أن تحملنا الكارثة سواسية . وشق علي التنفس وسط تلك الكتلة المتراصة من البشر ، المحدقة بي من كل جانب . ولكن قيل حقاً « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . فلولا المحيطين بي ما حفظت توازناً في وقفتي تلك على قدم .. ! أنا لا أقول اني كنت ثابتاً كالطود رسا . إنما كنت اميل مع الجمع ما مالوا اماماً ووراءاً . فكأننا الموجة العارمة تعلو وتنحسر . او كأننا الفرد يركب ناقة ، فيهتز معها كلما خبت ، وكأنه منها على ارجوحة. وتذكرت وسط ذاك الضجيج مقالاً لا ادري متى واين قراته ، يتحدث عن شاعر لا كالشعراء ، يهبط عليه الوحي في المكتظ من الامكنة والصاخب من الاجواء . فبدا لي ان احاول تقليده . خصوصاً وان شاعري كما وصف قصير . ولم لا يا صاحبي .. الست من فصيلته قزماً !

واهويت بمعول إرادتي على ارض افكاري حرثاً . فلعلي انبت منها عشباً . وتصبب راسي عرقاً . ثم نجحت المحاولة . فتخيلت نفسي مع زمرة الحافلة فننا تلهو به صرصر . غير ان الريح قست فأطاحت بالفنن الى استراليا . واذا به ... اي نحن — يصبح قبيلة من الوطنيين ترقص على قرع الطبول ونقر الدفوف ، كأنها الرجل الواحد ، امام الزعيم الساحر .

واختلطت الصور في راسي وتشابكت ، نتيجة موجة من الركاب الجدد

انقضت على الترام . فتحولت القبيلة الاسترالية الراقصة شيئاً فشيئا ، الى حفنة من السمار في إحدى قرى لبنان ، يدبكون على لحن المجاوز وانغام الناي ، في نشوة من السحر اترعها الغناء . وبدا لي ان جارتي في الدبكة صبية في عمر الورود وحسن الربيع ، ترقص على التوقيع في خفة غزال ، وتميس على الالحان في رقة انسام الصباح . وكان ذراعها المتشابك مع ذراعي دافئاً حياً ، يدهدهـ اعصابي في حنان ، فيثور دمي على غليان . وكم كان جميلا ان يعصف بهاحماس اللحن كلما اشتعل ، فتلقي بنفسها علي في لاوعي من النشوه ، ويحتك الجسدان في ثورة من نار .

واصابني من الاحلام خدر لذيذ . فنسيت الترام واهليه ،وعميت عن عجائبه ومآسيه . ثم ابتدأ الضجيج يغزو اذني من جديد . وابتدأت تعي بعض مايحيط بي الحواس . فشعرت بملامسة جسم لجسمي . وظننت هذا امتداداً لما فات من احلام.ثم نزعت عن بصيرتي غشاوة .. فشككت حالا في نوايا جاري النجار. والتفت حانقاً مغروراً ، اتهيأ لمحاضرة بليغة في الآداب القيها عليه .غيراني وجدت المسكين مازال على مقعده ، منكمشاً بين سلاله واخشابه ، يهتز رأسه المخروطي مع اهتزاز الحافلة ، في انتظار الفكاك من اسره والنهاية من مطافه . فتحولت بفكري وبصري نحو العجوز ، وقد حسبت تلك الملامسة منها مناورة جديدة . بيد انها كانت من امرها على شاغل ، تستمتع بنزهتها في الترام على خير مايرام ، منهمكة في إلصاق جبينها وأنفها على زجاج النافذة بوضع مناسب ، يتيح لها رؤية بيروت للمرة العشرين . فأجلت الطرف حولي مستطلعاً ، وإذ بي أجد بالقرب مني فتاة ريانة الحسن ناضجة الانوثة ، ثمارها الشهية تفوح عبيرا ، وجمالها الصارخ يتألق نوراً . كانت تقف على استحياء ، مطرقة برأسها البديع الى الارض ، بينما راح الزحام يدفع بها نحوي في عناد . وشعرت بنظراتها الفاتنة تتركز علي ، رغم ما كان يبدو عليها من عدم اهتمام بي او التفات نحوي . فهزت أعطافي كبرياء .. وتظاهرت بدوري أنني لم أنتبه لوجودها على مسافة مني مغرية .

أنا اعلم اني لست ممن تعشقه النساء . غير أن الهوى الحقيقي شيء وزمالة الترام شيء . فما ضرها لو روحت عن اعصاب مكدودة !؟

تلك المخلوقات المكتظة بها الحافلة .. ما اروعها ! لقد بدات احبها مذغدت مفيدة . فلولاها ما اندست الحسناء بي ، هرباً ممن هم شر مني واخطر جانبا ..

تلك الحافلة الكسيحة المفككة الاوصال ... ما ابدعها ! فلولا رقصاتها المحمومة ما ترنحت تلك الغادة وارتمت علي .. ! لقد كنت لطيفاً جداً ، ولا ادري كيف حدث ذلك . غير انها هي التي اخبرتني به ، وهي تبتسم وتعتذر عن اختلال توازنها المؤسف . هل حقا كان ذلك مؤسفاً ؟ - اما بالنسبة لي فلا!

يقال ان للانسان من الحواس خمس . ما هذه السخافة ؟ إن لي الف نوع من الحواس . وقد تجمعت كلها آنذاك في تلك النقاط المحظوظة ، حيث كان يلتصق بي جسد الحسناء . ورحت اتظاهر باللامبالاة وعدم الانتباه. بينما كنت ، والحق يذكر ، كتلة من احاسيس ومشاعر ، تثير كل موجة تسري في الزحام الرعشات في اعصابي المتوترة . وبدأت العن الترام .. ما له لا يهتز بشدة اكثر ..! انني اريد ان تقع كل لحظة علي . اريدها لي .. لي !!- ربما كنت في امتن حافلات بيروت ! وبدأت انقم على الناس .. ما لهم لا يتدفقون على الترام سيلا ..! اريد حافلتي ارض حشر .. اريد فتاتي ان تلتصق بي اكثر واكثر ! اريد ان احتويها في اضلعي .. ان اذيبها فيّ !!!

واخذت الاحلام تختلط بالحقيقة . فشعرت بالغادة تقترب ! آه .. تلـــك الاشعاعات الدافئة المنبعثة من جسدها - ما الذها ! ذلك البخار الحار .. لقد اخذ يسري في دمي ، وبدأ يكوي شفتيّ !! واحسست بحرارة دمها .. يبدو ان شراييننا اتصلت فأخذ يصب في حشاي . وذاك الدوي يعلو كل ضجيج .. اهو خفق فؤادي ام قلبها ؟ - لم اعد ادري ...

وظللت اتظاهر باللامبالاة . فالترام مزدحم بالبشر. والبعض يحب ان يدس انفه فيما لا يعنيه . وكنت اشتعل .. آه ... لو كنت وإياها وحدنا ...

وبدات اتحرر من الواقع .. فتخيلت نفسي على ضفاف غدير ، أفترش الحشائش الطرية ، واستظل بالاشجار اليانعة . كنت اتوسد ذراعها .. فقد كانت معي هناك .. حسنائي ! واخذ بلبل يشدو على لحن المياه . فنظرت في عينيها ، وابتسمت . فتضاحكت مرحاً ، واخذت تغني معه . تلك المخلوقة الرائعة ... لقد كانت روضة محاسن . لم أستطع أن أنتظر نهاية أغنيتها ، فقد كان فمي يلتهب . ولم أملك إلا وأطبقت به على ثغرها أرويه . وكان ذراعي يعتصر خصرها . وكان صدرها الناهد يحطم صدري !

ورجعت إلى الواقع. كان صدرها يحطم لا صدري ، بل الكتف مني والظهر. فوددت لو أشد بها إلي... ووددت لو أقبلها ! ولكن الحافلة كانت مليئة بالناس. فعدت الى الاحلام انشد فيها العزاء .

وتخيلت نفسي في غرفة مظلمة . الريح تعوي خارجاً ، والمطر يعزف على زجاج النوافذ ، وكأنه يستثير الطبيعة بلحن القتال . لم أكن أرى شيئاً في الدجى. حتى أنفي لم أكن أراه . غير أني كنت أشعر . كنت أشعر بالكون كله في أعطافي ... كنت أشعر بالحياة ! ملاحم الاغريق .. معلقات العرب .. سمفونيات الغرب .. فلسفة الصين .. صوفية الهند... وجودية رومة - كل ذلك كان في دمي .. ولا عجب. فقد كانت بين ذراعيّ.. الحسناء ! لم أكن أراها، بل كنت أشعر ! كنت أشعر بأنهار الخمر تنسكب في دمي فتسكره . كنت أشعر بأثمار الجنة في يديّ ، وبخورها في رئتيّ . وكنت أحس النور كله في قلبي. فقد كان بجيا !!

ورجعت إلى الواقع. لقد كان علي أن أعمل شيئاً . ووددت لو أحقق بعض أحلامي. غير أني شعرت بحركة . فالتفت إلى الوراء . واذا بها ذاهبة .ماذا.. أتذهب الحسناء هكذا .. دون أن أكلمها ، دون أن أتفق معها على موعد ؟ !! فانتفضت أطرد عني أشباح الخيال وأكداس الركاب . وتحفزت أحاول اللحاق بها . غير أن صوتاً رتيباً هادئاً خرق سمعي :

ـ اسمعوا لي يا شباب !

لقد كان قاطع التذاكر . فمددت يدي الى جيبي لاخرج حافظة النقود . ماذا ...؟ إنها ليست هناك ! ربما نسيتها في البيت .. كلا ! .. بل كانت معي . وكان فيها كل معاش الشهر ! وأخذت أفتش جيوبي كلها باضطراب وجنون . لم يكن هناك شيء .. وسطعت الحقيقة أمام عيني فجأة ـ لقد كانت حسنائي لصّة !!

opeikandl.com

obeikandl.com

عذاب

الجبال تصطخب بالرياح العاتية الهوجاء، والسهول تموج بالضباب الكثيف القاتم . وهناك ، في تلك الزنزانة الضيقة ، جلست وإياه ، ننصت لامواج الرياح الجامحة وهي تتكسر على جدران سجننا الشامخة البنيان . وكان خليل يلتف بعباءته الممزقة ، التي كانت تهتز معه كلما لسعته إبر البرد القارس . أما انا فقد كنت احدق في وجهه باصرار ، متسائلا عن سر تلك الرعشة المتراقصة عليه . فقد كان صاحبي كمن ضاع رشده ، في سهومه الشارد ، وتكاثف الغم في بصره ، وتلون الاسى على وجهه . وافاق فجأة من شروده ، ليتململ تحت نظراتي الفضولية الحادة ، ثم أطرق من جديد . فخيل إلي انه سيغرق في غموض افكاره ثانية ، ولم استطع الصبر على ذلك فتنحنحت ، ولما فشلت في انتزاع انتباهه ، ملكني الضيق والحنق عليه لتجاهله إياي. فوجدتني اصرخ في وجهه بعنف وغضب .

— اين انت يا خليل ! وبماذا تفكر ؟

ولذ لي ان اراه ينتفض تحت وقع كلماتي كمن لدغته عقرب . فقدشعرت آنذاك اني ثأرت لنفسي ، وانتقمت منه لاخفائه عني ما يشغله . غير ان العطف مالبث ان تسرب الى قلبي ، وتدفق في دمي ثائراً فياضاً ، عندما تدحرجت على وجهه قطرات كبيرة سكبتها عيناه . وراعني ان اسمع صوته ينشج في البكاء ، وان ارى جسده يهتز مع شهيقه وزفيره . فقفزت الى الباب محاولا استدعاء

obeikandi.com

« المأمور » عله يحضر الطبيب ؛ غير ان صاحبي اشار لي ان ارجع . فالتفت اليه ، لأجد رأسه يتهاوى على كتفيه ، وهو يتهالك الى الارض ، وقد اسبل عينيه ، واضطرب تنفسه ، وشحب لونه ، وراح في غيبوبة نوبة عنيفة ، ثارت فيها اعصابه المرهقة ، ومضت تعبث بجسمه الهزيل الذي اخذ ينتفض كالعصفور الذبيح .

لم اكن قد رايت من قبل مثيل تلك النوبة . فاستبد بي الجزع على رفيقي الطريح . وتملكني الاشفاق من ان تكون نهايته . وسرعان ما كنت على الباب الحديدي اقرعه بقبضتي ، واهزه بيدي هزاً وكأني احاول اقتلاعه . ولم يطل بي الامر حتى هاج السجن وماج . وتراكض السجناء الى ابواب (قواويشهم) مطلين عبر قضبانها يتطلعون ما الخبر . وجاءني المأمور شاتماً متوعداً وقد وضع يده على مقبض مسدسه كمن يخشى امراً . ولما لم يجد على الباب سواي ، غاضت الخشية من وجهه ليحل محلها الغضب والاستئساد وهو يزمجر :

— ما بك يا ابن اللئام ؟ لقد وضعناك امس مع خليل في هذا الزندان ، عقاباً لكما على المشاغبة . ترى ، أجئتنا بمشاغبة أخرى ! ؟

وماتت الكلمات على لساني أمام تحيته الحارة تلك ، فأشرت الى الداخل ، حيث كان رفيقي لا يزال يهتز وينتفض في غمرة نوبته . ورفعت نظري الى وجه المأمور منتظراً أن أرى الشفقة تكسوه . غير أني رددت بصري بحرقة ، فلقد كان ذلك المخلوق يهز رأسه استنكاراً وهو يردد .

ـ ما هذه الحيلة السخيفة ! أتظنان أنكما تخدعاني بهذه اللعبة لاخراجكما من الزندان ؟ إنكما لن ترجعا إلى « القاووش » حتى تعودا عن إضرابكما المضحك !

— ولكن ، يا أفندي ، لا دخل لهذه القضية باضرابنا عن الطعام ، ألا تراه يكاد يقضي تحت وطأة نوبته ! ألا تحضر له الطبيب ! ؟

ـ ليس به شيء ! ليس به شيء ...

ومضى ذلك الانسان في سبيله ...

ورجعت إلى صاحبي والالم يحز في نفسي المهيضة الجناح . فوجدت انتفاضه يسكن وقد تلاشت حدته ، وتنفسه يرجع إلى حالته الطبيعية شيئاً فشيئاً . فسرّي عني بعض الاضطراب ، وأخذت أدلك يديه الباردتين بمثابرة ولطف ، وأنا أناديه بين الفينة والاخرى بصوت مرتعش، لأعلم ان كان قد عاد اليه وعيه .

وما لبثت حركته أن سكنت ، الا صدراً يعلو ويهبط ببقايا العاصفة . ثم فتح عينيه بوهن ، محاولا اغتصاب ابتسامة ماتت قبل أن تولد . فقفز قلبي بين ضلوعي فرحاً . فقد استرد وعيه . وكأنه ولد من جديد !

ورغبت اليه أن يخبرني إذا كان يعرف النوبة قبل اليوم . فترقرقت الدموع في عينيه وهو يهمس : « انها لأول مرة ... ولكنها لن تكون الاخيرة ! » فأطرقت ... لقد أدركت ان في الامر سراً . ولم احاول ازعاجه بفضوليتي .

* * *

كان الزندان الضيق كقبر يحتوينا أحياءاً . فلا الشمس تعرف سبيلها اليه ، ولا الهواء النقي يجسر على الاقتراب منه . ولولا جلجلة الرياح البعيدة ، لنسينا أننا من أهل هذه الدنيا . وكان يشاطرنا المسكن جيش من الصراصير السوداء، يعزف لنا موسيقاه « العذبة » صباح مساء ، ويزحف على جسدينا كلما اشتاق مداعبتنا ودغدغتنا ، او طاب له التعبير لنا عن عواطفه العميقة . وفضلا عن تلك الصراصير « اللطيفة » ، كنا ننعم بجوار مئات من البراغيث والقمل ، تنهج أساليبها الخاصة في بثنا تحياتها وصداقتها . فتقبلنا كلما سنحت لها الفرصة ـ وما أكثر ما كانت تسنح ـ وتسجل على أجسادنا تذكاراتها الخالدة ! ...

ولقد حظينا بشرف النزول في وادي الصراصير والقمل ذاك، نتيجة لاضرابنا عن الطعام . فقد كنت وخليل في احد قواويش السجن بين عشرين من أمثالنا، وكان قد مضى على توقيفنا أكثر من ستة أشهر ، دون أن نمثل أمام المحكمة. ولم تكن تهمتنا بالشائنة. فقد قبض على خليل في حادث مشاجرة مع المختار ، وقد اعتقلت أنا أبان المعركة الانتخابية بتهمة الشغب والاخلال بالامن . ولطالما

قدمنا « المرضحالات » إلى المدعي العام نلتمس إخلاء سبيلنا . ولطالما رجوناه إحالتنا على المحاكمة . غير أن صرخاتنالم تكن لتذهب إلا في وادغير ذي قرار، ونظل نحن كما كنا ، بيننا وبين العالم حجاب . فمللنا الجدران الخرساء ، ومللنا القضبان الحديدية القاسية ، بل مللنا الحياة دون نور ودون حرية . وأخيراً هاج بنا الياس وعيل الصبر ، فأعلنا الاضراب عن الطعام حتى الموت ، او الافراج عنا، أومحاكمتنا بسرعة! وما ان علمت الادارة بتصميمناحتى غضبت وأرعدت ومضت تكيل لنا التهديد والوعيد ، ثم بدأت تنفذ منه شيئاً ،فأفردتنافي الزنزانة عبرة لبقية السجناء ، وأنذرتنا « بالفلق » ان تابعنا « شغبنا » المزعوم . وأمام هذه المعاملة المحمومة ، عاهدنا النفس على المضي في إضرابنا حتى النفس الاخير ، لنفهم الذين لا يريدون أن يفهموا ، أن الانسان ليس بهيمة تساق ، ولا مطية تسلس القياد .

وجاءت صاحبي النوبة دون ميعاد ، فبعثرت ماانتظم في رأسي من النيات . ووجدت نفسي فريسة للقلق والاضطراب. لأن استمرار الاضراب لا يعني بالنسبة لخليل في حالته تلك ، إلا الموت المحتم الأكيد . إنني أستطيع متابعة الاضراب وحدي . ولكن كيف أتمكن من اقناع رفيقي وهو العنيد الصلب، على العودة عن الاضراب لوحده ، وقد بدأناه سوية . فعزمت على النكوص رفقا بخليل وخوفاً عليه ، لا رهبة للادارة وخوفاً من عقابها . وهكذا عدنا الى الطعام. فسر مدير السجن ، وظن ذلك امتثالاً منا لأوامره ، فتمادى به الغرور مزيناً له أن أساليبه المبتكرة، هي آية الزمان في الاقناع ووحيدة القرن في الحكمة . ولم يلبث أن بعث يستقدمنا اليه ، حيث انفجر في وجوهنا ـ دون سابق انذار بمحاضرة عجيبة ظل ينهال بها علينا مدة ساعتين ، مشتركاً بيديه ورجليه وأنفه الضخم وحاجبيه الكثين ، في التعبير عما كان يصرخ به صوته الاجش بطرق ملتوية . وكانت محاضرته الطويلة العريضة تلك ، تتلخص في كلمتين دالتين هما : أن نشاغب مع الجميع الا معه ، ونقاوم السماء والارض الا حضرته . لأنه

رجل ليس كالبشر، وهو يقول ذلك شفقة منه علينا كي لا نقع تحت سياط نقمته، لانها لا يمكن أن تتركنا أحياءاً ! . وانتهى من فيض بلاغته وبيانه ، بالاعلان لنا بطريقة رزينة جداً ، انه اصدر أوامره « السنية » بارجاعنا الى « القاووش » حيث عين خليلا « خوزمتشياً » عليـــه . فتمتمنا بكلمات غير واضحة ، ظنها (سعادته) مدحاً له وتقريظاً ، ولم تكن في الحقيقة سوى شتم له وسباب . وهكذا خرجنا من لدنه تشيعنا نظراته الزائغة بالتيه والغرور ، ورجعنا الى « القاووش » الذي لم يكن سوى احدى غرف السجن المظلمة العفنة ، لا تفضل على الزنزانة الا بسعتها واكتظاظها بالسجناء والموقوفين . ولم تكن الوظيفة السامية التي منحها الصديقي سوى رتبة خادم للقاووش . ولقد كانت تلك المهنة ذات امتياز حقاً . لأن صاحبها يستطيع ان يتقاضى عشر سيجارات اسبوعياً من كل سجين يخدمه . وهكذا استقر بنا المقام . ومضى صاحبي يعمل في القاووش ليل نهار . فينظف الغرفة ويرتبها .. ويغسل الصحون ويلبي الطلبات .. ويجمع السجاير . وكنت أرقبه وهو يقوم بمهام وظيفته الجديدة . فأبتئس لحاله وأرثي . كان واضحاً عليه أنه ليس ممن تعودوا خدمة الغير . ولكن ما كان يدهشني منه أكثر من أي شيء ، هو تلك السحابة الخفية من الالام المتلبدة في جبينه وحول فمه . وكانت تكفهر أحيانا وكأنها تهم بالامطار . ولكنها لم تكن لتمطر . وذاك ما ظل يزعجني دوما . لان الدموع التي لا تجد لها من المآقي مخرجا ؛ ستتراكم حتما في القلب حتى تفيض او ينفجر ... وتلك هي الكارثة ! ولقد صح مـــا توقعت ؛ فلقد عاودت صاحبي النوبة غير مرة . حتى اضطررناه أن يعرض نفسه على طبيب السجن ذات يوم وقد حضر في زيارة قصيرة . فذهب اليه يقدم رجلا ويؤخر الثانية . وما أن بدأ يشكو له علته حتى أخذه (الدكتور) بيده يتظاهر بجس نبضه . وما هي الاثانية حتى أفلتها وهو يقول : ليس بك شيء يا بني . فقط لا تحزن ولا تبتئس ، واشرح صدرك ما استطعت . وعاد خليل الى القاووش يتعثر بخطاه . وما كاد يقص علينا خبر الطبيب حتى ابتسم أكثر السجناء ،

فالغبي يطلب من البلبل الحبيس أن يغرد. وهل يملك الا ان يحزن من كان رهن القيود ! وكيف يطلب من السجين أن يشرح صدره ، وييسر قلبه، وهو الحبيس المقيد، وهو الحي الدفين في قبر الالم ! وماهو الذي يسر النفس ويشرح الصدر ، أهي تلك الجدران القاسية المكفهرة ، أم هي تلك القضبان الحديدية المتراصة تحجب النور وتمنع الهواء . فالعفونة القذرة ، والرطوبة النتنة ، والاهانة القاتلة ... تلك هي البيئة الفريدة التي تغمر السجين بوحشتها الخرساء ، فهل يملك إزاءها الى الابتسام سبيلا .

* * *

- خليل العبد ! خليل العبد !

ومضى الحاجب يجلجل بالنداء ، وما هو إلا سجين أعجب الادارة فانتقته ، وعلمته وصاياها العشر في احتقار الآخرين ، ثم عينته حاجباً يستلم مفاتيح الغرف ويتحكم في المساجين .

- نعم سيدي ! أمر ؟ ...

صاح خليل وهو يقفز الى الباب متسائلا عن سر تلك الدعوة ، ويتطلع الى وجه الحاجب بشيء من الخشية وكثير من الفضول .

- لا شيء . مواجهة !

تمتم الحاجب بضيق وتبرم ، وكأنما لم يعجبه التحدث مع من دونه مقاما ، ثم صرخ فجأة وهو يفتح الباب .

- عجل ! اخرج ! قلت لك مواجهة !!!

فانساب خليل من الباب مضطرباً ، ومضى وراء الحاجب راجف القلب يحسب للمواجهة تلك الف حساب . ومضت وراءه نظراتنا تشيعه بالتساؤل والحسد . فالمواجهة في حياة السجين أمر جلل ، وهي نعمة كبرى يرفل في خيراتها البعض ويحرم من غبشها الاكثرون . انها الشباك الذي يطل منه على العالم الخارجي، لينعش قلبه بصوره وأخباره . وأخذنا نتخيل رفيقنا يمضي الى

باب السجن، ليمد يده من بين قضبانه الحديدية يصافح زائره المجهول ،ويتناول بيده الثانية الهدايا والزواويد . بينما « الاومباشي » يبرق ويرعد بصوته الشبيه بجعجعة الطاحون :

ـ عجل (ولا) خلصنا ! هل ستمضي النهار كله على الباب ؟ ! !

وقطع علينا استرسال تخيلاتنا صوت خليل . نعم خليل نفسه الذي كنانظنه على باب السجن يواجه ويضحك ويتسلم الهدايا ، جاء يصرخ بصوت مرتعش بالغضب :

ـ ياحضرة الحاجب، تعال افتح لي باب « القاووش » .

ـ لماذا لا تواجه يا مخبول ؟ !

ـ لا اريد ان أواجه ! افتح لي الباب ، أرجوك !

ـ خاطرك ...

فدخل خليل يتمتم ويدمدم ، وقد اضطرمت عيناه ، وانقلبت سحنته ، وتقلصت عضلات وجهه ، وأخذ يرتعد كورقة في مهب الريح . فلمست فيه بوادر العاصفة ، وتقطعت نياط قلبي إشفاقا عليه وهو الصديق الامين ، فعزمت على الترفيه عنه ما استطعت . ونهضت فأخذت بيده إلى ركن قصي انتبذناه ، حيث مضيت أسرّي عنه جهدي ، واسمعه من القول ما يذيب جبال الهموم . غير أنه ظل زائغ النظرات ، مكفهر الوجه ، وكأنه لا يعي من كلامي شيئا ولا يفقه له معنى . وإذا به يرفع رأسه فجأة ليحدق في وجهي هنيهة بعينين تجمد الدمع في مآقيها ، ثم تمتم بصوت يسحق الجلمود :

ـ سليم ! لم أتعرف عليك إلا في السجن . ولست أعرف حتى الآن عن ماضيك شيئاً . كما أنك لا تعرف عن حياتي خبراً . ولكنك أخي بعهد الله . لأن الاخلاص الذي ظهر منك لم أره قبل في مخلوق قط .

فتدحرجت على وجهي دمعتان وأنا أسمع منه هذا القول الوفي ، فلاحظ ذلك وهم بالكلام ، وإذا بالحاجب يصرخ على الباب .

obeikandi.com

- خليل ! خليل ! يقول لك المختار أنه أسقط عنك كامل ادعائه الشخصي لدى المدعي العام !

فالتفت الى صاحبي لأهنئه ، وقد شاعت في نفسي الغبطة ، غير أني وجدته يتاوى كمن ضرب بسوط . فحيرني منه ذلك وسألته .

- ما بك يا خليل ؟ ألا تعلم أن هذه بشرى تفتح لك باب الحرية ؟ ! !

فأجابني بصوت يتمزق ألماً ونقمة :

- لقد كان على الباب مع امي . جاءا ليواجهاني سوية ! !

فعجبت لقوله وانكرت عليه فعله . وقد لاح ذلك على محياي جليـــا فلاحظه واردف :

- سأحدثك يا صاحبي بقصتي ... سأحدثك .

* * *

- على بعد عشر كيلو مترات جنوبي بعلبك ، تربض قرية بريتال ، مستندة الى كنف الجبل الشرقي الاشم ، ومعتصمة بمسالكه الوعرة وجروده المنيعة...

كان خليل يهمس بصوت خافت متقطع ، وهو يحدق في اللاشيء ببصر زائغ ، وكأنه ينظر إلى بعيـد ... متخطياً الحواجز والشواسع ، الى حيث المروج الخضر توشح سفوح الجبال ، والقمم الشم تناطح سحب السماء . ثم التفت إلي فجأة ليقول :

- بريتال ... هل تعرفها ؟ !

ولما احنيت رأسي اشارة الايجاب ، اندفع يتكلم ساهما شارداً ، وكان صوته ينساب الى اذني ضعيفاً وكأنه يأتي من بعيد ... من الماضي ... من الذكريات .

- انها قريتي بريتال . ولدت فيها لعشرين عاماً خلت . وكان والدي مختار القرية . وكانت والدتي حسناءها . لا زلت أذكر ذلك الحنو الدفاق الذي كان يحيطني به أبواي . فقد كنت اول ثمرة لزواجهما السعيد . ولقد ظللت الثمرة الوحيدة .

وفي ازقة القرية كنت ألعب مع أترابي ورصفائي ، حتى إذا لاح لي غريب مضيت أركض وأتمتم إلى والدي لأخبره لاهثاً بقدومه . وكم كان يسرني ان يربت على كتفي مبتسما وهو يقول : « قده إلى هنا يا بني . . وقل له أن المختار يريد أن يراك ! » فكنت أندفع إلى الغريب لأمشي أمامه بغرور ، وأنا أنظر حولي بخيلاء ، لأتلقى نظرات الغيرة والحسد من أبناء القرية . وكم كان يرضي غروري أن يجلس الدرك أو الزعماء في مجلس أبي إذا مروا ببريتال ، ليأتي شيوخ القرية وشبابها يسلمون عليهم . ويسألون خاطر المختار .

وهكذا نشأت على النعمة الوفيرة والجاه الرفيع . إلى أن كانت حوادث فلسطين ، وعصفت بالشعوب العربيه ثورة الحقد على الأئمة الصهيونيين . فتطوع والدي مع جيش التحرير ، ومضى إلى الجهاد بقلب عامر بالايمان . وقد ودعته القرية بكاملها عندما فارقنا ، وقد تبارى الشباب بالعتابا يمجدون بها حميته، وتبارت الصبايا بالزغاريد المازجة يبار كن نخوته .

ووجدت نفسي بعدئذ رجل البيت ولما أبلغ الرابعة عشر من العمر،فغبطت نفسي على هذه النعمة . وأرضى كبريائي العلم بأني ابن ذلك الرجل العظيم الذي تجله القرية ، وبأني أصبحت نائبه في البيت وممثله أمام الناس . ولكن ذلك السرور الذي شاع في نفسي لم يكن إلا وهماً زائلا وسراباً كاذباً . فسرعان ما اجتمعت القرية لتنتخب مختارها الجديد، ثم نجح « أبو حسين » منافس والدي القديم وعدوه الالد . وأخذت الحسرة تحز في قلبي كلما رأيت غريباً يتجه إلى بيت « أبي حسين » بعد أن كان يتجه إلى بيتنا . وأخذت الغيرة تنهش فؤادي كلما امتلأ مجلس المختار الجديد بالزوار ووجهاء القرية ، أو هتف المنادي يدعو الاهلين إلى بيت أبي حسين لأمر ذي بال . وهكذا وجدت نفسي بين عشية وضحاها ، وحيدا في الحياة إلا من أمي . وقد تحول احترام القرية إلى بيت غير بيتنا ، وأحاط الجاه والرفعة بشخص غير والدي الحبيب .

غير أن الأمل المستفيض ظل يدغدغ نفسي بعودة أبي من الجهاد ، يحمل لنا

المجد الطارف فوق التالد ، لنفقأ الحصرم في عين «أبي حسين» ، وننتزع منه المخترة والوجاهة. وانتهت حوادث فلسطين على ما يعرف الجميع ، فعاد الجنود والمتطوعة ، وتعالت زغردات النساء في كل مكان تحتفل برجالها الراجعين. وشعشعت بيوت الآفلين من الجهاد بالفرحة والحبور ... إلا بيتنا ، فقد ظل في ظلام دامس ، تخيم عليه وحشة الاسى ومرارة الانتظار ، لأن أبي لم يكن مع الراجعين . وأحاطت بي نظرات القوم منها المشفقة ومنها الشامتة .

وتصاعدت همسات الناس الى اذني تقول :

ـ انه لم يرجع . انه قتل في المعارك .

ـ لم يعثر له على أثر . ربما كان أسيراً ، ربما عاد بعد حين !

فكنت كلما رنت في أذني هذه الكلمات ، أركض الى البيت لأدفن رأسي في صدر أمي وأنا أنشج في البكاء، وأسائلها خلال شهيقي وزفيري .

ـ أماه ! هل صحيح ان أبي قتل؟ ... هل هو ميت ؟ ! .. أم هل يعود ؟!!

فتنحني على رأسي تداعب شعري وترويه بدموعها وهي تجيب :

ـ لا أدري يا بني . لم يفت عليه الوقت .. أرجو الله أن يعود !

ـ ولكنه لم يعد ..! ولم نعد نسمع عنه أي خبر . ورحنا نتسقط أخبار فلسطين من الشارد والوارد . فكان الكل اذا سألناهم عنه مطوا الشفاه ولووا الاعناق وأجابونا بعلامة استفهام كبيرة . وبعثنا الى محطة الشرق الادنى نذيع تسآلنا الملحف . فكنا كمن ينادي القبور .

وكرت السنون الطوال تترع لنا كأس الهوان وتسقينا حتى الثمالة . فعرفت مرارة اليتم وأدركت مذلة الحرمان . ولشد ما كان يغيظني أن أرى أبا حسين يتحكم بنا فعل موتور ، وكأنما هو لا يسعد الا باذلالنا ولا ينعم الا باصلائنا نار الشقاء .

وكرت السنون من جديد ... فنسي أهل القرية والدي وقد مضى على ضياع فلسطين من الاعوام خمسة ، ولم يعد يذكر المختار القديم الا ثلاثة : أمي

وأنا ، والمختار الجديد . نعم ، لقد ظل ابو حسين يذكر والدي ولا ينساه . لأنه لم يفتر لحظة عن اضطهادنا وكأنه يخشى ان أنازعه المختارة يوماً وأنتزعها منه ، وكأنما طاب له ان ينهج في اذلالنا شر ما ابتكرته مخيلته الشيطانية من اساليب ، اذ انثنى عن طرقه القديمة في تحقيرنا المكشرف . ومضى يتودد الى امي بالحاف وإصرار ، ويتظاهر نحوي بالعطف والاشفاق . لقد كانت امي حقاً لا تزال جميـــلة ساحرة . فهي لم تتجاوز بعد عامها السادس والثلاثين ، بل لم يكن منظرها ليوحي الا بأنها في الربيع الخامس والعشرين . ولقـــد طالما راودها الكثيرون وطلب يدها الخاطبون . فصدت الجميع حرصاً علي وضناً بي على الدخلاء والغاصبين .

وألحف المختار في ملاحقته امي وما ارعوى . فما راعني منها الا ان بدأت تميل اليه وتستجيب لظراته . فجن جنوني وهاج بي الغضب ، فكدت اقدم على جلل الامور . لقد نجح الخبيث في احكام سهمه فأصاب منا في الحشا مقتلا . وطفرت يوماً وقد أعماني الغيظ والغضب ، أخبط في البرية خبط عشواء ، فالتقيت بغريمي خارج القرية وحيداً ، وثارت بي الضغائن الحبيسة والنقمة المستعرة ، فهجمت وقد انفجر غضبي ، أنهال عليه بقبضتي ورجلي وعصاي ... ولم اتركه الا طريحاً يتلوى على الحضيض .

لقد شكاني النذل الى الدرك فقبضوا علي . وها انا لا ازال موقوفاً في السجن منذ ستة اشهر دون ان تحال قضيتي على المحكمة . ولا يعذبني في قفصي هذا الا الشك ... الشك القاتل الرهيب . ترى ماذا يفعلان الآن وقد صفا لهما الجو وخلا الرقيب .

* * *

التفت خليل الي فجأة يسألني وقد اضطرمت عيناه . ارأيت يا اخي سليم . لقد أصاب اللعين الهدف . فاهتزت مشاعري لبؤسه القاتل . وحاولت أن أسري عنه بقولي :

ـــ إنها ظنون لا صحة لها يا صاحبي . لا تطلق لخيالك العنان ... إن بعض الظن اثم !

ـ ولكن ، لقد حضرا اليوم ليواجهاني ... لقد كانا على الباب سوية ... لقد كانا يبتسمان !

ـ خليل ... لا تدع الظنون تسلك بك موارد الشطط . لقد جاءت أمك به ليسقط عنك ادعاءه . انها تحبك ... أمك .

فأطرق برأسه يتلوى وكأنما قولي سعّر عذابه . وطال به الاطراق فحاولت أن أسبر غوره وقلت :

ـــ لماذا لا تقدم « عرض حال » جديد تلتمس فيه اخلاء سبيلك وقد امتنع الادعاء الشخصي ، لعله يفرج عنك فتذهب لتتأكد بطلان ظنك .

فهز برأسه موافقاً وهو على نار الغضى . وسرعان ما كنت اخط له المعروض باعتكاف ولهفة . وما ان ذيله بتوقيعه حتى قفزت الى الباب ادفعه الى المأمور راجياً منه الاسراع في تقديمه .

وارخى الليل على الكون سدوله ، فتمددت على فراشي وقد جفا النوم عينيّ ، ورحت استعيد في مخيلتي قصة صاحبي البائسة . فأدركت مدى الالم الذي ظل يرزح تحت ثقله طيلة الشهور الاخيرة . ومضيت ارجو الله الا يحقق شكوكه السوداء . وجرر النعاس على عيني ملاءته . ثم غرقت في لجة النوم العميق . وعلى خيوط النور المنسابة من كوة القاووش استيقظت . وطرق مسمعي همس السجناء وهم يروون لبعضهم الاحلام ، وحسب هواهم يفسرونها . فنهضت اوقظ خليلا من غفوته . واذا به مستلقياً على فراشه يحدق في السقف بعينين حمراوين كأنه لم ينم ليلته . وسألته عن حاله فتمتم بكلمات غير واضحة ، ثم شرد من جديد .

وابى اليوم ان ينتهي . فاستبد بي الضيق والتبرم . كنت اود الخلاص من تلك الوجوه الجاهمة التي اراها صباح مساء . كنت اود الخلاص من ذلك الجو الخانق النتن . ونقمت على الناس جميعاً وانا اتطلع الى رفاقي الذين مللت

ورؤياهم وسمت احاديثهم . وعلى الباب تسمر نظري يرصد الرائح والغادي، الى ان اطبق الليل على الارض بعد طول العناد .

واحتفل الكون بولادة يوم جديد .. ثم جاء « المأمور » يصرخ على الباب منادياً صاحبي خليلا :

— لقد وافق المدعي العام على اخلاء سبيلك مقابل خمسين ليرة تدفعها كفالة .

فقفزت الى الباب وقد استفزني الطرب . واذ بي اسمع خليلا يتمتم بصوت كسير :

— ومن أين لي الخمسين ليرة ؟ ! !

فتحركت نخوة المأمور وصاح وهو يفتل شاربيه باعتزاز وزهو .

— ألا تعرف أحداً في هذه البلدة تستدين منه ؟ إني على استعداد لارسال شخص يحضر لك المبلغ .

فاختطفت من أحد السجناء قلماً مضيت أسطر به كلمة لأحد معارفي من التجار أرجوه فيها إقراضي المبلغ . وما ذهب بها « الافندي » حتى بادرت رفيقي بالتهانيء المستفيضة . وما لبث المسكين ان اصبح منتهباً لنظرات الغيرة والحسد تنهال عليه من كل جانب . بينما أحاط به الجميع إحاطة السوار بالمعصم ، ومضوا يحملونه التواصي والرسائل إلى أهليهم وأصحابهم .

وظل خليل ساهماً شارداً لا يعي من القول شيئاً . ثم رفع رأسه فجأة وكأنما ثاب اليه رشده ، وحدق في وجهي بأسف وهو يقول :

— لن أنسى عطفك ما حييت يا سليم . وسأزورك كل أسبوع عساي أفي بعض مالك علي من الفضل العميم . أو ربما قضى الله امراً كان مفعولا .

وعاد الرسول قبيل المغرب بالنقود . وما ان تمت المعاملات القانونية حتى نهض صاحبي يودعنا واحداً واحداً . وما انتهى إلي حتى عانقني بحرارة وجعل يسكب دمع الاخوة السخين . ثم انتزع نفسه من بين ذراعي ، ومضى لايلوي على شيء . وسرعان ما كان الباب يصطفق وراءه ، ليشيعه وقد انطلق الى دنيا

الحرية والنور .

* * *

كانت الريح تعوي وراء الجدران الخرساء ، وكأنها قطيع ذئاب عصف بها الجوع وشاقتها الدماء . فتلفت حولي أتفقد الرصفاء ويا لهم من رصفاء . لقد كانوا يقضون أوقاتهم بالحب والنميمة ، يكيدون لبعضهم بعضاً ، ويهضم القوي منهم حق الضعيف . وكأنما انطبعت قسوة السجن على اكبادهم، وتجسدت نقمته في مؤامراتهم . فجعلت اجيل الطرف حولي باحثاً عن الطبيب الامين . واعياني البحث فتوجهت بفكري إلى خليل ، وتذكرت خروجه من السجن منذ يوم ، يحمل على عاتقه ثقل هم دفين ، ويتطلع الى المدينة بشك يتطلب اليقين . وكنت اتساءل هل ارى وجهه ثانية . فقد تعودنا نحن السجناء ، ان من يخرج من لدنا لا يدير وجهه الى الوراء قط . وبينما كنت في افكاري تلك ، اذ بضجة ترتفع في الباحة واصوات تصيح :

ــ سجين جديد ! سجين جديد .

فنهضت الى الباب استطلع الخبر ، واذا بي ارى نفسي وجهاً لوجه مــــع خليل ... ! نعم خليل نفسه .. خرج من السجن ليعود بعد يوم واحد . وما راعني منه الا ذلك الوجه المتقلص الصارخ الباكي ، وتلك العينان المورمتان تكادان ان تخرجا من محجريهما ، وهما ترسلان يمنة ويسرة نظرات زائغة لاتستقر على شيء . فطفقت اناديه وقد انفطرت نفسي جزعاً . واذا به يحدق في وجهي كالمجنون وهو يصيح :

ــ ماذا تريد ؟ ! ! لقد أتيت ولن ارجع بعد اليوم !

وما ان احتوته الغرفة حتى اخذت بيمينه وانا اسأله بلهفة صارخة :

ــ خليل ! ما بك ! ماذا فعلت !

فأنّ أنيناً ينفطر له كبد الصخر الاصم . ثم تمتم بصوت خافت يتمزق الما .

— عندما خرجت من لدنكم امس ، لم اجد سيارة استقلها الى برتال .
فحثثت رجلي على المسير . فلم اصل القرية الا وقد هبط الليل على الدنيا بكلكله
كنت اعلم ان ما من احد في القرية ، سمع بخبر الافراج عني . فأردت مباغتة
امي لأعلم ماذا تصنع في غيابي . وتأخرت حتى نام الجميع . فانسللت الى
البيت تحت جنح الظلام . ودفعت الباب فوجدته غير موصد . فانسبت الى
غرفتها دون اي حركة . وما ان تعودت عيناي الظلمة ، حتى رأيت ، ويالهول
ما رأيت ... رأيت أمي المصونة في الفراش ، ومعها رجل .. اجل ، رجل تعانقه
ويعانقها وقد أغفيا على وضع شاذ ..! وتذكرتها تقف على باب السجن مع
«ابي حسين» وهما يبتسمان . فثار الدم في راسي وجن جنوني للشرف الذبيح والعار
الاثيم . ولم أملك الا واستللت سكينا حادة انهلت بها على الاثيمين تمزيقا وتقطيعا .
وأسكرتني رائحة الدماء تنفر منها على وجهي ويدي ، وأطربتني حشرجتهما
وهما يلفظان النفس الاخير ، فمضيت اضرب وامزق ، حتى لم يبق في جسديهما
مطعن لسكين . ثم اندفعت الى القنديل اضيئه لأتشفى من منظر جثتيهما الدنستين .
واذا بي ارى ويا للفظاعة .. لقد كان ابي !!!

وانفجر خليل يبكي ويضحك بهستيريا وهو يصرخ :

— اجل .. ابي .. ابي .. لقد عاد يومها من اسرائيل بعد ان قضى هذه
الاعوام سجينا فيها لقتله احد كبراء الصهيونيين ...

ثم رفع المسكين راسه يحدق فيّ بنظرة مجنونة وهو يصيح :

— ابي الذي انتظرته طيلة هذه السنين ...

... بدل ان اعانقه ليلة عودته قتلته ..

◎◎◎◎

obeikandl.com

خفقات قلبين

عزيزتي بهاء :

بدم القلب أخط هذه الرسالة ، لتحمل لك من مهجتي بضعاً ... وتوحي اليك من أشواقي ناراً ...

لا أكاد أصدق اننا افترقنا ، ولكن ... أين أنت ... وأين أنا !!!

لا أكاد أصدق لولا .. ثورة الحب في أعماقي ! لهيب الحنين في شفتي !!

لا أكاد اصدق ، لولا ... روحي العطشى - إلى سحر عينيك ! إلى حنان قلبك !! إلى دفء خديك !!!

يا ملاكي الحارس !

بالأمس انتزعتني السفينة من لبنان ، فانتزع لبنان مني القلب والروح ! ومضت تنتهب بي البحر إلى مصر ، وكنت وحيداً ... وكنت معي !

أجل ..! كنت أراك بين الجفن وحبة النظر ... كنت أحسك في دمي .. وفي شفتي !!

وكنت وحيداً ... أمد ذراعي فلا أطوق إلا الهواء ! وأطبق بفمي على اللاشيء ! وأناجي وأنادي ولا جواب ! ..

وكانت هي الذكرى ...

هل تذكرين ؟ ..

حرش الصنوبر في قريتنا « حردين » ، حيث كنت أصطاد لك الفراش وتجمعين لي الزهور .. وكنا صغيرين ...

هل تذكرين ؟ ..

تلك الامسية الحلوة في ظلال القصر على ضفاف غدير ... حين كان القمر بدراً يطل علينا من وراء الجبال ... كنت اعزف لك على العود لحن « على غصون البان » .. وكنت تهمسين معي بكلمات الاغنية .. هل تذكرين إذ انقطعتُ فجأة عن العزف ونظرت اليك وقد هزني الحنين، فأطرقتِ إلى الارض وقد اصطبغ خداك بدم الورود وفضة القمر . وكانت القبلة الاولى ..

هل تذكرين ! ؟ ؟

هي عزائي ... هي عذابي ... الذكريات !

لقد عشت عليها من بيروت إلى اسكندرية ،وكانت الباخرة تشق عباب اليم، بينما كنت أنظر إلى الافق ... فأرى « حردين » كمثل السراب ، وأرى قصرنا فيها يستند إلى حرش الصنوبر ! كنت اراك ... في وجه الشمس المشرقة على البحر ... فأناجيها ... اناجيك ! وكانت الشمس تبتسم ، فلقداسكرغرورها ان تنوب لدي عنك !

وكنت اراك ... ارى خديك في ورود الشفق ! ارى عينيك في غور البحر ! ! ارى شعرك في حلك الليل ! ! !

يا حياتي ...

أحقاً أصبحت في مصر وانت لا تزالين في لبنان ! ؟ احــقاً أمهلني الاجل وقد افترقت عنك ! ؟ ولكن .. لقد افترقنا لنلتقي ! ! فما جئت مصر إلا لأتابع دراستي في جامعاتها .. كيما اكون لائقاً بك - يا عيوني !

يا بهائي ...

اخط لك هذه الرسالة من « اسكندرية » وقد وصلتها قبل ساعة . وبعد لحظات أستقل القطار الى القاهرة ...

سأكتب لك كل اسبوع ... سأكتب لك دائماً ! ! ! فأجيبي ! اجيبي على كل رسالة ! !

بحق عهودنا المقدسة .. اجيبي .. دائماً ! !

لن اهدي لك قلبي في الختام ... لأنه لا يزل معك ! فتحسسيه قرب قلبك
احبك ...
الى الابد
كامل بهنودي

بيروت في ٢ تشرين اول سنة ١٩٤٥

#

ومضت تقلب الكتاب بين يديها ، وتعيد تلاوته وتستعيد وحيه . وكان الدمع ينهمر من عينيها ، والحياء والشوق يلهب وجنتيها . فقد كان هناك ... بين سطور الرسالة ! كان هناك ... بنفسه الحساسة وروحه الرقيقة وقلبه الحنون ! !

وفجأة ، طرأت على بالها فكرة سوداء أظلم لها محياها الحزين . انه في مصر وكم في مصر من غانيات ! فربما أنسته احداهن ابنة عمه بهاء ، وجميع ما بينهما من عهود ومواثيق ...

وعادت الى الرسالة تمطرها بالقبل والدموع . وعادت الى الذكريات ...

فرأت فيما يرى الحالم نفسها يوم كانت طفلة ابنة اربع سنوات ، تستظل برعاية والدها الامير سليم بهنودي . لقد كان والدها رجل « حردين » والقرى المجاورة ، فاق الجميع بالشجاعة والشهامة . ولكنه قتل ... قتل ذات يوم وهو يدافع عن مسكين هاجمته عصابة لصوص . فلم يبق لها غير عمها خليل .. خليل الـــذي اصبح بعد موت شقيقه آخر أمراء بني بهنود !

وكفلها عمها حادباً على رعايتها بحنانه الدفاق . فلم تشعر بوحشة في محيطها الجديد . لاسيما وقد وجدت رفيقاً للهو طفولتها البريئة ... هو ابن عمها كامل ! كان صغيراً لا يتجاوزها الا بعامين . وكان وحيداً لأبويه .. فوجد فيها الصديق ووجدت فيه الصديق !

وهكذا أمضت معه سني طفولتها يسرحان ويمرحان في حديقة القصر وحرش

الصنوبر . بينما الالسنة في الجوار تردد :

- انهما خطيبان منذ الرضاعة !

واجتازت بهما السنون مرحلة الطفولة . فتحولت الصداقة البريئة الى حب طاهر . وطفقا كلما انتهيا من المذاكرة والدرس ينطلقان الى الحقول والاحراج مع اسراب البلابل وامواج الفراش ..

وكانت القبلة الاولى ... وكان الهوى ..!

أما السنون فراحت تكر وتفر ... وانتقلت العائلة إلى بيروت كيما يتابع كامل العلم . ثم أتى يوم ضاقت فيه معاهد بيروت بالشاب فقرر الرحيل إلى جامعات القاهرة ...

وكان الفراق ... وكانت دموع وآهات ...

وها هو يكتب لها من اسكندرية مقسما عليها ان تراسله . وهل تملك الا أن تفعل . ؟ لقد نكأ جروح قلبها بكلماته ومراميه ، فهي على نار من الهوى لاهبة . وتوجهت بأفكارها الى مصر تتساءل ...

أين اضحى الآن ، وماذا ترى يفعل ...

●

ومضى القطار يطوي الارض طيا ... ويبتلع الوهاد والسهول في طريقه الى القاهرة . وفي احدى عربات الدرجة الاولى كان يجلس شاب وسيم الطلعة اسمر الجبهة ، تلمع عيناه بالذكاء وينطق هندامه بالثراء . وكان يحمل بين يديه جريدة لبنانية يتظاهر بالقراءة فيها بينما عيناه الرماديتان تحـــدقان فيما وراء المرئيات . وكانت على وجهه تتماوج العواطف حمراء صفراء وداكنة .. وبينما هو في جلسته تلك ، اذ بيده ترتفع بحركة لا شعورية لتتحسس جيباً صغيراً يقع قرب فؤاده . وتناول من الجيب بطاقة على جانب منها رسم يمثل قلبين يجمعهما كيوبيد ، وعلى الجانب الآخر صورة باقة من الورود وباقة الحسن . وفتح البطاقة فاذا بوجه حورية غيداء يطالعه من الداخل . وتراءت عيناها تبثانه

الهوى المشبوب، بينما راح ثغرها يفتر في ابتسامة فتانة .. فتنهد عن كبد حرى، واندفعت إلى عينيه قطرتان من نار .. وضحكت عجوز تجلس بقربه .. وتململت صبية كانت تراقبه .. فصحا إلى نفسه وقد تملكه الخجل . ثم عاودته ثورة الحب فهوى بشفتيه على الصورة يقبلها ، وكأنه يتحدى الناس جميعاً .

وتعالى صفير القطار يمزق الفضاء ، ثم اهتزت العربات وكأنها تلفظ النفس الاخير قبل أن تهمد حركتها ، فقد وصلت الى محطة القاهرة . ونزل المسافرون يتدافعون الى سيارات الاجرة ،بينما راح الحمالون يتدافعون الى البضائع .. واختلط الحابل بالنابل ! أما كامل فكان في سيارة تخترق به شوارع المدينة نحو منزل عينه للسائق في شارع سليمان جوهر بالدوقي . وما أن وصلت به الى المكان المنشود حتى ترجل منها واندفع يقفز على درجات السلم بنشوة وحماس . فقابله صاحب المنزل بعاصفة من الحفاوة وسيل من الترحيب . ولا عجب فهو صديق قديم زامله أيام الدراسة في لبنان وسبقه الى مصر بسنة واحدة .

جلس الصديقان يضحكان ويثرثران ، فكامل يتحدث عن لبنان وأخباره ، وجليسه « عادل البسام » يتحدث عن مصر والجامعة . لقد كان عادل ابنا لعائلة لبنانية مترفة ، بعثته الى مصر ليستوفي من العلم قسطه ، فجاءها فرحا علّه يجد بعيداً عن اهله المسرح لانطلاق شبابه . وبعد سنة من الكفاح المستمر اخذ يدلي بتقريره الى صديق الطفولة والشباب . اما كامل فكان يصغي الى هذر صديقه بأذنين فاتهما السمع ، لعلمه بأن جل مغامرات عادل ليست سوى من بنات خياله الرحب . ولم يكن يملك الا ان يبتسم كلما تباهى محدثه بترامي احدى ملكات الجمال على قدميه ، او تدله محصنة ذات خدر في حبه .

وتكشفت لكامل حقيقة عادل مع الايام . فرأى فيه الشاب الخجول الحيي مع النساء اذا حضرن وفارس الغزل الوهمي اذا غبن . أما هو فقد مضى يعب من بحر الجامعة قطرات العلم بظمأ لا يرتوي ، ساكناً مع صديقه شقته في شارع سليمان جوهر ..

obeikandi.com

وذات امسية ندية الحنان ، وقد انهمك الصاحبان في استذكار دروسهما ، قرع الجرس وجاءت دلال ... فما كاد عادل يعلم بحضورها حتى دفعه الخجل واستفزه الطرب وهو يقفز الى الباب يستقبلها بحرارة ويشد على يدها في نشوة . ولما رأى نظرة التساؤل في عيني صديقه قدمها اليه قائلا بزهو :

ـ الا تعرف دلال ؟ ... وكيف ؟. انها ابنة الصائغ الشهير عصام النجار اللبناني الاصل .. وهي خطيبتي نتيجة حب متبادل ..

فتطلع اليها كامل وهو يمد يده مصافحا . فرأى في شعرها سنابل القمح يوم الحصاد ، وتبين في عينيها لون السماء في يوم صحو حار ... اما قدها المياس فكان غصن بان وخدها باقة ورد .. وانتزعه من تأمله صوتها الجرسي وهي تقول لخطيبها ضاحكة :

ـ لم تعرّفني على الافندي يا عادل .

فتبسم وهو يجيب بمرح

ـ إنه الامير كامل بهنودي ، جاء يدرس الزراعة في الجامعة ، وأبوه من سراة لبنان ووجهائه .

فضغطت على يده وقد شاقها اللقب . وانحنت امامه في حركة تمثيلية وهي تغمغم :

ـ تشرفنا أفندم

وجلس الثلاثة يتجاذبون اطراف الحديث . بينما راحت دلال تخالس النظر إلى وجه كامل وهو لا يوليها التفاتاً ، وأخذت تكثر من الكلام وترفع صوتها بالضحك لتسترعي انتباهه ، فما أفادها ذلك بخير ... وإذا بها تنهض فجأة لتقول :

ـ ألا تذهبون إلى منتزه جزيرة الشاي في حدائق الحيوان ؟

ـ فوافق عادل بحماس ظاهر . واستقل الثلاثة سيارة مضت بهم إلى المبتغى وفي قلب كل منهم نار ..

* * *

رمى كيوبيد سهمه ... فتلوت على فراشها محمومة الفكر جريحة القلب . وأحست يدمها يهتف بها في عناد :

- دلال ... إنه عريس أحلامك المنشود ! !

ويلها ... أبعد خطبتها لعادل تنكث العهد لتخونه مع صديقه ! ! ولكن هو الحب ... إن سلطانه على قلبها لعظيم ! كامل .. لقد فتنها بهدوئه ... لقد سباها بجماله . . لقد سحرها بلقبه ! ! فهل تحفظ العهد أم لنداء القلب تستجيب ؟ ! !

وعاندها الوسن فظلت تتلوى على فراشها في عذاب . ولازمها السهاد من الليالي العديد ...

ولم تعد تذهب إلى منزل خطيبها المفتون . فقد طفقت تتهرب من لقاء كامل .. وذاك شأن المحب يسعى متشوقاً للقاء حبيبه حتى إذا ما أزفت الساعة تهيب ونكص على أعقابه . وكيف لدلال ألا تفعل ذلك وهي التي تعلم أنها ارتكبت باشتهاء كامل إدّاً . أما هو فقد ظل خليّ البال من أمرها لا يشغله إلا دروسه وذكرى ابنة عمه . إلى أن جاءه ذات يوم كتاب ... ولم يكن من بيروت بل من القاهرة . وما أن مزق الغلاف حتى طالعته أحرف من نار ...

« كامل ... »

« عندما قابلتك لم أعلم ما يخبىء لي القدر . ولكن ما حدث قد حدث ...
« وها أنا أكتب إليك أشكوك إلى نفسك ! كنت أنظر إلى عادل نظرتي إلى
« صديق عزيز . إلى أن رأيتك ... فملأت علي كياني وسلبتني العيش الهني !
« حاولت عبثاً أن أطرد عني الداء ... فتجنبت رؤيتك ، وأقنعت نفسي أنني
« من أمري على وهم ! غير أن الداء عاودني مستضرياً . فأيقنت أن لا مفر ...
« أحبك ! ! ! أجل أقولها والخجل يمزقني ! أقولها والغيظ من قلبي يثور بي !
« ولكن هي الحقيقة أقول ... أحبك ! ! فتعال إلي في منزلي غداً الساعـــة

« الرابعة ... تعال قبل أن تحرقني النار ! !

« واسلم يا قاتل لضحيتك :

دلال النجار»

✲ ✲ ✲

فأفزعه ما قرأ ... وراعه ما انتهى اليه ! لكنه ذهب على الموعد .. وكانت في المنزل وحيده ! ! فراحت تستعلي تارة وتستعطف أخرى . وراحت تحتال في الكشف له عن مفاتنها علها تستغويه . غير انه قال بصوت مختنق :

ـ كفاك مناورات يا دلال ! إنك خطيبة عادل ... ولن أخون صديقي ..

فتلوت على نار ... ورفعت اليه طرفاً ناعساً ينضح بالشهوة وهي تجيب :

ـ لم أعرف الحب قبل أن أعرفك . فإن كنت وافقت على خطبتي له فما ذاك الا رفقاً به وقد كاد أن يجن . أما الآن فلكل دربه ... ومـــا أنا الا لك !..

ـ دلال ... لا تترددي في مهاوي الشطط ... ما أنت الا لعادل ... ان ثقته بك لاتحدّ ! فلا تضيعي فيك ثقة مفتون ! !

فابتسمت في سخرية قاسية .. وكشفت عن ساق كأنه الرخام ، وتقدمت نحوه تتمايل في رغبة وتهمس في اغراء :

ـ مالنا وللناس ... تعال إلي ... يا حبيبي ! !

فلمس في نظرتها بوادر عاصفة ... وشعر في عقله بريح اشمئزاز ... وأحس في جسده نار استجابة ! واذا بيده ترتفع دونما ادراك الى الجيب الصغير تستخرج بطاقة . وفتح البطاقة ينظر الى تعويذته ... صورة بهاء ، ثم التفت الى دلال وقد صبغ الالم وجهها بالزعفران يهمس في اطمئنان :

ـ لست بالخلي يا فتاة . ان لي في لبنان خطيبة . ولست بمن ينكث عهداً !

فنهشتها غيرة، ومزقها حسد ... والتفتت اليه تحشرج :
— ومن هي هذه المحظوظة ؟
وشعر بما يعتمل في قلب صاحبته . فأراد أن يسري عنها بقوله :
— أنظري اليها ... الى طهارتها الرائعة ... الى حسنها الملائكي ... انها ابنة عمي بهاء ! ألا تستحق العبادة !؟ ستكونين لها أختاً ... وسأكون لك شقيقاً ! فارجعي عن طيشك ، وعودي الى من يهواك - صديقي عادل !

لقد طعنها بزرق النصال . فجاش كيانها بالنقمه المستعرة . غير انها سكتت على مضض وغمغمت بمرارة :
— بارك لكما الله ... وشكراً على نصيحتك !

غير أنها أضمرت الانتقام . ومضت تتحين الفرص للانقضاض . ومضت الايام وهي على نقمتها في غليان . لم تيأس من عادل رغم ما بدا لها منه . غير ان هناك ... في لبنان تكمن منافستها . فكيف لها ان تبلغ منها المرام !

وذهبت ذات يوم الى منزل عادل في زيارة . فاصطدمت بالخادم وهو يخرج بسرعة من الباب . ومن هول الصدمة سقطت من يد المسكين رسالة . فالتقطتها تقلبها بين يديها مستطلعة . واذا بها من كامل الى بهاء . فاضطرم وجهها بالدم الثائر . والتهب في قلبها الجرح الدفين . فتصورت كلمات الحب والهيام تحملها الرسالة عبر البحر الى غريمتها البعيدة . وتصورت مدى سعادة تلك بما تستلم . فضج رأسها بطبول الغيرة والتهبت عيناها ببريق الانتقام . ومضت بالخادم تستغويه بالأصفر الرنان حتى وافقها على ما سألته ...

ولم تصل الرسالة الى بيروت ... !

●

وجد كامل في طلب العلم حتى حاز في الصف الاولية . ولم ينس بهاء التي لأجلها اجترح المعجزات في سعيه ، كيما تستطيع ان تفخر به بين قريناتها . لم ينسها وهي ملاكه الحارس . بل واظب على الكتابة لها كل اسبوع ولقد وصله

منها عدة رسائل تضطرم بالشوق والوفاء . ثم انقطعت عنه اخبارها .

وظلت الايام تزحف دونما توقف ...

لم ينقطع عن الكتابة الى ابنان يبث الاهل وجده . فلماذا يبخل الأهل عليه بالمراسلة ! وبهاء ... اليس من بينهما من العهود ذمام ! ؟

وعذبته الشكوك . ترى هل نسيت وده ؟ ام هل طرأ علـى الأحبة من الدهر عادية . ؟

وأضناه الوجد . وتسلل الى جسمه الواهن داء ... وما كادت السنة المدرسية تنتهي ، حتى طار الى لبنان على أجنحة الشوق وفي نفسه صراع ... يتحسب لما سيرى الف حساب . وما أن وضع قدميه على أرض الوطن حتى انطلق الى « شارع الحمراء » يطرق باب ذويه . فترامت الام على صدره ضاحكة باكية . وعانقه الأب وهو يمنع دمعه ان يهمي غزيراً . وكان عيد وكانت افراح ... لم تتم ! اذ التفت فجأة الى امه يسألها عن بهاء .. . فأطرقت وانفجر الأب يلعن ويدمدم !

لقد اختفت بهاء ... ولم يعثر لها على أثر !

فهاله الخبر القاصم . وران على وجهه وجوم . ثم ابتدأ الظلام يلتهم النور في عينيه . وتداعى كدوحة حطمتها الريح ... ! وعاد طفلا ... وراح ينشج في البكاء .

فانحنت الام على أذنه هامسة :

_ انها غلطتك !

فانتفض استنكاراً وهو يدمدم :

_ وما الذي فعلت لأجزى شر جزاء .. ؟

فربتت على كتفه بحنان وكأنما أدركت خطأها في استنفار غمه . ثم لم تملك الا ان قالت :

_ لقد قسوت علينا يا حبيبي .. ولم يصلنـــا منك في الستة أشهر الاخيرة اي كتاب .

فما صدق سمعه . إذ راعه ما انتهى إلى أذنيه ، والتفت اليها يسأل راجفاً مأخوذاً

- أنا لم أبعث لكم برسائل ؟ ... إنك لا ريب واهمة . بل أنا من يحق له أن يعتب . أنا الذي لم أستلم أي رسالة منذ ستة أشهر .

فتضاحكت قائلة :

- دعك من المزاح الآن يا بني ...

ولم يكن الامر بالمزاح ... فلقد كان حقيقة ما قال وقالت . حقيقة مؤلمة رهيبة ... إن في الامر لسراً ...

وضرب جبينه بيده فجأة ... فقد انهتك له الستر وبان السر ، فجعل يتمتم بنقمة واشمئزاز :

- إنها هي ... تلك الافعى .

وأراد العودة الى مصر فوراً فما أقر والداه فعله ، فظل يذوي ويذوي ... كالقنديل أعوزه الزيت . وما أوشكت السنة الدراسية أن تبدأ حتى استقل الباخرة إلى مصر وهو على لهيب ، واستقبلته القاهرة كما تستقبل أي نكرة يطرق أبوابها . وذهب توا الى الخادم يستنطقه فأقر بالمؤامرة :

- هي دلال من كادت له وأغرت الخادم بالنقود كي يحبس عنه الرسائل .

فانطلق الى دلال وقد هاجته النقمه ، واشتاق الى جيدها الابيض بين يديه يعتصره ، وتلهف على تمزيقها بأظافره ، غير أنها امرأة ... فنكص على أعقابه ولما يبلغ الجانية .

وعاد الى الجامعة يغرق نفسه في الدرس عله ينسى ... فأضناه الجهد وآذاه الوجد ، فاستبد به الهزال . ولازمته حمى خفيفة ... وهاجمه سعال جاف . وصعب عليه التنفس وقسا عليه الداء ... فمضى ينفث من صدره القطع الحمراء .

انه السل ... في آخر أدواره ...

أدرك أنه على شفا الهاوية فابتسم ... ابتسم وقد مزق رئتيه السعال المتواصل . ابتسم للخلاص من الفانية .

غير ان أصدقاءه حملوه الى مصحة « دار العلاج الدكتور جلانز » في حلوان. فأطاعهم وهو وهم على يقين من النهاية ، وهناك انتدبوا للعناية به خير ممرضة . وانقلبوا راجعين يحضرون قصائد رثائه يوم يموت ...

* * *

كانت الحياة تنساب من رئتيه مع اللهثات الداميه . فقد أعيا داؤه الأطباء رغم جميع الجهود . ولم يعد من أمل الا في تأخير الساعة ... ساعة الموت . فهناك ... كان يستند الى احدى نوافذ المصحة يومه ، ليوزع مع النظرات على الطبيعة ما تبقى من حياته . وكانت الاشجار الممتدة على مسرح بصره، تشاركه في اصفراره وذبوله . فهواء الخريف حطم منها الاغصان وأسقط الأوراق ، والغيوم الصفر أصلتها الرعشة وأولتها الجهوم. وبينما هو ذات يوم في وقفته تلك مع الخريف اذ بحركة غير اعتيادية تخش في هشيم المصحة ، يتبعها مريض جديد واكبه نفر من ذويه . فرفع الى الجمع نظراً أذوى الضنا نوره، يستعرض الراكب الجديد في قطار الموت . واذا بالدهشة العاصفة تلطم رشده ، فلقد كانت هناك شبيهتها ... بل انها هي — بهاء ! واراد ان يندفع اليها فما أسعفته قدماه، واراد ان يناديها فهاجمته نوبة من السعال الحاد... وكانت تقف مشدوهة تنظر اليه، ثم اندفعت نحوه فجأة...

وكان لقاء...

ونسي الناس والمصحة والداء وهو يحدثها بسفر عذابه ، ثم التفت اليها على حين غرة يسأل : وأنت ... أين كنت يا حياتي.

فحدثته عما نال منها انقطاع رسائله ، وكيف ماد بها الصبر فسافرت إلى مصر تبحث عنه ... وتوجهت حال وصولها القاهرة إلى دار عادل ، حيث التقتها دلال فزعمت لها أن كامل صاحب غانية أجنبية ساح وإياها إلى اوروبا ، فغلبها اليأس وقصدت كوبري قصر النيل تلقي بنفسها في النهر ...

وحدثته كيف التقطها أحد السراة وقد كان يتنزه مع عائلته في زورق في

obeikandi.com

النيل ، وكيف اعتنى بها عندما علم بأنها غريبة الدار ، فحملها الى داره في ضاحية المعادي ، حيث اعتنى بها مع عائلته الى أن شفيت فأحلوها الدار ابنة معززة...

وأصيب ابن لهم بداء الصدر فحملوه الى المصحة وكان اللقاء ...

كان كامل ينصت للقصة مرهف السمع حتى اذا ما انتهت أدمعت عيناه وهو يقول :

ـ لقد فاتني ركب الحياة فهلا رجعت الى لبنان ، عزاءاً لوالدي ! !

فأجابته بصوت يسيل رقة وحناناً :

ـ لا تيأس يا حبيبي فداؤك الحب والحب الدواء .. !

وعكفت على رعايته حادبة متفانية . فما أدهش النطس إلا شفاؤه ...

وطارا الى لبنان عصفورتان تتناجيان ...

* *

رفعت اليه عينيها الناعستين تتساءل :

ـ وماذا سندعوه يا كامل ؟

فانحني على الصغير يداعبه وهو يقول :

ـ سعد ! ما رأيك بهذا الاسم ؟ !

فضحك الجد وهو يتحسس شاربيه ، وزغردت الجدة بنشوة ، بينما تألق وجه الطفل بابتسامة ملاك ...

obeikandl.com

كبرياء

يبسط الليل على الارض وشاحه الاسود ، ففارت في حلكه بقايا أضواء تاهت عن مغيب الشمس . وكأنما الهدوء استنفر النسيم من الرياض فهب يسكر الأجواء بعرف الزهور . وتهادى الى الآذان لحن الاغصان مختلطا بأناشيد الامواج — انها آية ... تعرفها صيدا كل أمسية من ربيع !!

خرجت الى شرفة منزلي الكائن في ضاحية عين الحلوة ، أملي من نشوة الليل ملء مشاعري ، واستنشق روحه سعة رئتي .

كانت أشجار الليمون تنبسط على مسرح البصر وكأنها جموع العذارى في هيكل إغريق ، بينما راح القمر يطل عليها من وراء الافق ،حيياً لولا استعلاء الخلود ! وأفلتت مني نظرة نحو الجنوب ، أرجعت نفسي الحالمة الى الواقع المرير ه تلك الخيام المهلهلة ، المتناثرة في ظلام الليل على غبراء من الارض ، وكأنها كثبان الرمل في بيداء — انها مساكن من راموا الجوار فأسكناهم من الديار العراء !! وبدا نزل المشردين ذاك يبث السكون الف آهة من نار ، بينما لاح لعيني شبح ينسل منه الى ... لقد شعرت أنه يتوجه نحوي ، سارياً في حلك الليل الصموت الثرثار ! وما اقترب مني حتى تبينته وصحت :

— ما الذي جاء بك يا خالد ، في هذه الساعة المتأخرة ؟

فلم يجب . بل قفز متسلقاً الشرفة وكأنه اللص ، ووقف أمامي جامداً وكأنه التمثال قد من صخر . فأشرت اليه أن اجلس ، والدهشة تحبس عن لساني

النطق . ومضيت أرقبه بعيني موجس شراً . فقد خيل إلي أن به مس .

نظراته الزائغة ، أوصاله المرتعدة ، وقفته الساهمة الصموت — كل ذلك راح يفصح عن أمر ذي بال . وجلس أخيراً على طرف كرسي ، ثم أطرق تحت ثقل هم خفي . وعلى جبينه تماوجت رعشات ، وعلى وجه تصارعت أحاسيس . وإذا به يرفع رأسه فجأة ليصعد آهة حرى ، ويحدق في وجهي بإصرار غريق . حتي اذا ما رأى صفحة التسآل سطرها العطف على محياي ،فتح فمه بعصبية ومرارة وراح يتكلم بصوت مختنق أبح :

- أراك ترثي لحالي ولما تعرف الخبر بعد . رويدك ! ما اتى بي اليك إلا السعي وراء صديق أبثه السر . انك تعرفني يا هذا ، وتعرف أبي الحاج التقي .

ابي ... لقد رضعت محبته واحترامه مع اللبن . لا زلت أذكر قريتنا في فلسطين ، حيث حبوت ودرجت وترعرعت . هناك ... كنت أشعر أني في وطن . الارض الطيبة ، والمياه العذبة ، والسماء الحانية ... كل ذلك كان لي . كان جزءاً مني وكنت بضعاً منه . وبساتين القرية الغنية ... كان والدي يملك منها القدر الوفير . لا زلت أذكر احترام القرية لبيتنا ، ففيه وجاهة موروثة ، وفيه مجد طارف . عمي قضى شهيد ثورة سنة ١٩٣٦ ، وقضى معه أهل لي وأنسباء . اما والدي ، فقد كان مثال الوطني الحر ، يهب الاموال للثوار ، ويستنفر الجميع الى الجهاد . ولولا عاهة تقعد به ، لنفر في طليعة المحاربين . كان يحدب علي أماً وأباً ، فأنا كل ذريته ، من زوجة قضت فأقام على عهدها لا يتزوج . لا أذكر أنه حرمني يوماً من متاع ، أو قصر علي في عطاء . بل لا أذكر أنه ضربني يوماً او قطب في وجهي جبيناً . فيالها من ذكريات ...

وأرسلني الى المدينة أنهل من روافدها سلسبيل العلوم . ولم يبخل علي برفده فنشأت منظوراً موفوراً . أنعم في بحبوحة . وأعيش على سعة . وبدأت الكوارث الاقتصادية ترهق والدي في كهولته . وما أقرني على ما اعتزمت عليه من ترك المدرسة ومساعدته في اعماله . وبدأت حوادث فلسطين ... فشعرت

عا لوالدي مع الثوار من اتصال وثيق . واردت الالتحاق بالوطنيين . فعارض بشدة . وصرح انه يناضل عني وعنه . بل ذهب إلى ابعد من ذلك ، اذأرسلني الى جامعة بيروت أستقي منها العلم ، ثم حدثت الكارثة ...

الحرب الاهلية ... تدخل الجيوش العربيـــة ... قوافل المشردين ... الهدنة ... التقسيم ... وكنت بعيدا عن ساحة المعركة ، لا ادري ما قعد بي عن الجهاد آنذاك . ربما كان تتابع الحوادث بسرعة افقدني الجنان.

وابتدأنا حياة جديدة في مخيم عين الحلوة ، هي حياة الذل والبأساء. أملاكنا في فلسطين سطا عليها العدو ، وصدقات « الاغاثه » لا تقوم بأود انسان ، ولم أجد عملا ... ماذا ؟ ... أأقبل ما عرضوا علي من اعمال في مكاتب هيئة الامم او شركات الاستعمار ؟

كلا لن ادخل معسكر الاعداء ...

وقست علينا الفاقة : الخيام المهلهلة ... انها وقود اللظى إذا ما استعر الحر وأنياب الزمهرير اذا ما استشرى القر ، لا زلت أذكر يوماً عصفت فيه الريح ضارية ، فاقتلعت خيمتنـــا من الأوتاد ، بينما انفتحت السماء كأنها الميزاب ، تسكب علينا المطر يمازجه البرد ، أشرفت يومذاك على الموت. وقضى في المخيم عشرات .

ولاح لوالدي ان يتاجر مع عرب اسرائيل ، فمضى يكثر اليها من الاسفار، متخطياً الحدود على غفلة من الحراس ، يحمل الى فلسطين اللحم والبيض وغيره، ويرجع منها بالكثير من الريالات ، فتحسنت أحوالنا بعد ضيق ، وتربعنا في بسطة بعد فاقة ، الى ان تكشف لي الليلة سر ... انه والحق لفظيع ، فقد كان ابي يتجسس لحساب اسرائيل ...

التفت الى محدثي بدهشة واشمئزاز ، فما راعني إلا لطخة من الدماء عـــلى ثوبه . فحدجته بنظرة استنكار واعجاب وانا أسأل :

- وماذا فعلت يا خالد ؟

obeikandi.com

فأجاب والالم والنقمة والضعف والقوة على وجهه في صراع :

ـ انه ابي ... تذكرت عندما استلمت السكين حدبه علي وتدليله لي . تذكرت ايام مرضي حين كان يسهر على سريري لا كالأب ولا كالأم . تذكرت سني طفولتي في احضانه الحنونة . فأدرت النصل الى صدري ...

ثم تذكرت دير ياسين ، والوف المشردين ، والوطن الجريح السليب . فأغمدت النصل في صدره .

فحدقت في وجهه بإعجاب وعجب وانا أهمس :

ـ والآن ، ما الذي انت فاعله ؟

فأطرق هنيهة في عذاب ، وتمتم بصوت كسير :

ـ سأنتحر ... بل سأستسلم للدرك .

ثم رفع رأسه فجأة وهو يهدر بحماس وكبرياء :

ـ كلا .. لن أموت أو أستسلم وأمامي من الخونة والأعداء ملايين ..

اللص

كانت شبابيك البيت الأثرية تئن وتزفر عند كل هجمة من هجمات الريح . وكانت سيول المطر تتدفق الى الداخل وكأن لا نوافذ مغلقة . فيصبح البيت - أي الغرفة الوحيدة الضيقة المدفونة تحت الأرض - بحيرة تتجمع فيها المياه. وتصبح الأسرّة والفرش - وما هي إلا قطعاً خشبية سوداء عتيقة تتناثر عليها خرق كانت فيما مضى أكياس خيش - تصبح هذه الاسرة والفرش سفناً تعوم على الماء. ولا يجازف سكان ذلك البيت بركوب هذه السفن خوفاً من انهيارها وتفتتها . بل يعمدون إلى ربوة من الطين أبى البنّاء إلا تركها شاهداً على إهماله، فينحشرون على سطحها الضيق . وبينما كانت الاسرة المؤلفة من طفل وأمه وأبيه تتكدس على تلك الربوة التذكارية ، إذا ببرق خاطف يشق الغيوم فتلعنه بهزيم رعدها المدار . وصرخ الطفل واصطكت أسنان الزوجة ، فمضى الرجل يتمتم بآيات الله .

بدأت أولى خيوط الفجر تتسلل في الظلام مرتعشة تكاد تتقطع . وكأنما الرياح قد لاحظت ارتعاشها ، اذ مضت تهاجمها بشدة وقسوة ، ممعنة فيها تمزيقاً. كان ذلك في ليل بارد من ليالي شباط ، والغيوم محشورة في القبة الزرقاء حشراً، سوداء مدلهمة، ترتجف تحت ضربات الريح ، وتنكمش على نفسها كهرّ في زمهرير. فلا ندري اذن ، من اي ثغرة بين الغيوم تسللت خيوط النور تلك ...

انفصل رامز عن كتلة اللحم البشري ، ونزل عن الربوة خائضاً في بحيرة الماء، كان المطر قد انقطع ، ولكن الحفر والشقوق في أرض الغرفة لم تستطع بعد ان

تبتلع كل الماء المحصور بين الجدران الاربعة . كان رامز قد رأى خيط النور المتقطع في السماء ، فأدرك أن موعد عمله قد حان ، فسار في الطرقات الضيقة ، الغائرة بين البيوت ، الغارقة في بقايا المطر ، الضائعة في ظـــلام الليل . و كان كالسكران يمشي مترنحاً ، في كل خطوة يخشى الانزلاق . فطريقه كانت مليئة بالوحول ، وبقايا من الاوساخ . و كثيرا ما اعترض سبيله نهير ، ذلك أن مياه المطر كانت تتجمع وتجري في الطرقات الضيقة المنحدرة ، صاخبة معربدة ، و كأنها نهر يهدر .

بعد مدة ، كان رامز يقف أمام الفرن ، منهمكاً في خبز الأرغفة ، وكانت النيران المتأججة تسلط على وجهه سعيرها ، فتلهبه وتكاد تشويه . وينحدر العرق على جبينه نقاط كبيرة ، تمعن في وجهه عقصاً . ولم يكن لديه من الوقت مـــا يمكنه من مسح تلك النقاط من العرق . فالعمل متراكم أمامه ، وصوت المعلم يدوي في أذنه حاداً صاخباً غاضباً :

- يا كلب ! يا خنزير ! يا بليد ! يا ... يا ...

لقد كان ذلك المعلم يجزل لمخدوميه بسخاء شتائمه « المؤدبة » . فقد كان ذلك جل" عمله ، يأتي في الصباح ليكيل السباب . وما أن يكل ، اسانه « المحترم » ، حين يترك الفرن ويذهب إلى المقهى ، فيجلس على كرسي في الزاوية ، ويمد إلى « نارجيله » يدخنها بشراهة . وتتعالى قرقرة « النارجيلة » ، فترتعش لها أذنه بطرب ، وترتسم على فمه ابتسامة كبيرة تكشف عن أسنانه العجيبة ، المكسرة ، الضائعة بين اللون الأسود و الأصفر . ويتعالى صوت النارجيلة ، فينساب إلى أذنه لحناً جميلا عذباً . ويتذكر رنة الليرات الذهبية وهو يعدها كل مساء . ويدوي في اذنيه صدى رنينها الأخاذ .. وتختلط قرقرة النارجيلة برنين الذهب ، ليؤلفا لحناً فريداً صاخباً ، لا يستطيع أن يركن إلى سواه ! ويتيه صاحبنا في تأملات ذهبية تنقطع كلما انقطع نفس النارجيلة المحببة . فهو يتصور ربح اليوم وكم سيكون . وهو يفكر في أجدى الوسائل التي تمكنه من ابتزاز أكبر مبلغ من المـــال من المستخدمين والمستهلكين .

« والمعلم » اليوم يفكر بطرد رامز من العمل ، لأن حسين عرض عليه العمل بأجرة أقل . وهو يفكر بزيادة نسبة طحين الذرة والشعير عند مزجه بطحين القمح في الخبز السوقي . وهو يفكر ويفكر بأفكار خبيثة كثيرة ليس لها حدود في مخيلته الشيطانية . وفجأة ، قطعت عليه تأملاته ، وبدون سابق إنذار ، يد باردة وضعت على كتفه . فالتفت ، بشيء من الذعر وكثير من الغضب ، وهو يستعد لتحية مزعجه بنصف محتويات قاموس الشتائم . غير انه وجد مزعجه شخصاً محترماً . إنه زميله ، صاحب الفرن القريب من فرنه . وبين الزميلين صداقة متينة جداً تكاد تعادل متانة خيط العنكبوت . وزادت الابتسامة على فم صاحبنا اتساعاً وهو ينهض محيياً زميله « العزيز » ، ومقدماً له كرسيا بقربه. وجلس « الصديقان » يتحدثان بشؤون وشؤون ، وكل منهما يضمر للآخر الكراهية والحقد والبغضاء . ولكنهما يلفلفان ذلك بستائر من المجاملة والابتسام. وبعد قليل يكون في زاوية المقهى كما يكون كل يوم ، مخلوقان يدخنان النارجيلة ويسلطان على المارة عيونهما النهمة . فكلما مرت امرأة استعرضاها من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، وربما توقفت نظراتهما شيئاً من الوقت على ساقيها ، او على موضع آخر ... وما أن تمر عابرة السبيل تلك ، حتى ينهمك الصاحبان في حديث يبتدىء هكذا :

أتعرف من هذه ؟ - نعم ومن تكون ؟ - إنها ابنة فلان الفلاني !.. ويتطور الحديث ... فيستعرضان خلاله تاريخ الفتاة وأسرتها . بل تاريخ فضائح الأسرة ، الحقيقية والمخترعة . وتجود قريحتهما على الفتاة بادنى الأوصاف ، وبمفتريات لا ينجيها من ملحقاتها الا مرور فتاة أخرى تفتح المحترمين حديثا جديداً ...!

- الله أكبر ... الله أكبر ...!

ويدوي صوت المؤذن مجلجلا بالأذان . فينهض « التقيان » احتراما وتدينا. ثم يجلسان في صمت . غير أن حديث الفضائح لم ينته بعد ، فيختلسان الوقت كلما صمت المؤذن ليستجمع أنفاسه ، ويتمتمان بحديثهما « المهم » . ثم ينهضان من

مجلسهما ويتجهان نحو الجامع .

#

- يا كلب ، يا خنزير ، يا بليد ، يا ... يا ... اشتغل !

فارتعش رامز ارتعاشة محمومة ، وطغى على عرق التعب الحار ، سيل من العرق البارد استنزفته المفاجأة من جبينه . فرفع يده يمسح عنه العرق .

- اشتغل ! اشتغل يا ابن الحرام ! أتظن اني اعطيك الاجرة لكي تلهو طول النهار وتمسح العرق ؟ ! علي الطلاق بالثلاث ان أبقيتك بعد اليوم في الفرن لحظة . أخرج ... إذهب ... اغرب عن وجهي يا لعين ... ! !

واستدار « المعلم » بكل جد ووقار ، وهو يحاول عبثاً إخفاء بسمة الرضى عن وجهه ، ثم سار بتؤدة نحو المنزل وهو يكاد يرقص فرحاً . وبحركة آلية امتدت يده إلى جيبه تخرج مسبحة غليظة أخذت تداعبها وتعزف بحباتها لحناً مبتكراً ... وعلى اللحن تحركت شفتاه بصمت . ولكن ذلك لم يمنع الشفتين من أن تفترا في بسمة فضحت فمه الكبير الواسع . إنه فرح طروب. فقد استطاع بأهون سبيل طرد رامز من العمل . وغداً سيستخدم حسين ... ذلك الشخص الذي يشتغل بأجرة زهيدة جداً ، والذي يستطيع أن يبيع ضميره بكل سهولة ، ويسرق من الخبز ويتلاعب دون شفقة بأتعاب الاجراء الصغار .

⁂

بسط الليل على الكون وشاحه الاسود ، فأغرقه في ظلام رهيب ، هادىء هدوء الموت ، ساكن سكون العدم . فتلمس رامز طريقه الى البيت تلمساً ، وهو يتعثر تعباً وإعياءً واضطراباً . وكان على جبينه ظل خفي من ألم عميق . وكانت عيناه المحمرتان تفضحان النار المتأججة في صدره . وما كاد يطـأ عتبة المنزل حتى خف طفله الى استقباله على عادته ، وتعلق به وهو يغرد : - بابا. بابا. فنظر اليه نظرة طويلة عميقة ، لم تلبث الدموع أن كفنتها بستر أغبش . وكأنما أدرك الطفل سر والده ، إذ أطرق إلى الارض فجأة ، ودفن رأسه الصغير بين

فخذي أبيه وهو يهم بالبكاء ويقول :

– إنك لم تحضر لي اليوم « معلّلا » يا بابا ...

فرفعت الزوجة نظرها متسائلة :

– ماذا بك اليوم يا رامز . لماذا لا تداعب الصغير كعادتك ؟ ! هل أنت مريض ؟ ؟

فادلهمّ وجهه وهو يئنّ :

ليس بي شيء ... ليس بي شيء ...!!

وكذبت عيناه لسانه . فجرى دمعه غزيرا ينطق بالنكبة . فبكت الزوجة لبكائه وصاحت :

– لماذا لا تشكو إلي بثّك . ألست شريكة حياتك ؟ !

فهمس عن كبد حرّى :

– من أين سنطعم الصغير غدا ؟ ! ...

فولولت بارتياع :

ماذا ؟ أعاد المعلم فأنقص أجرتك ؟ ؟

فحشرج بلوعة :

– بل أدهى وأمر ... لقد فصلني من العمل ! !

فقصمت ظهرها الكارثة . ورفعت الى السماء نظرا زائغا يشكو البليّة :

رباه ... ! علام نستحق هذا الجزاء ... ؟ ! أين عدلك يا عادل ... !

وعصفت بالبيت ريح الألم . فبدا كساحة قتال خلفتها معركة . وساد الوجوم يثقل الصمت . فأطرق تحت كلكله الجميـــع . حتى الصغير البريء ابى الصياح وكأنه فهم من الدنيا الأسى ...

وأخذت الدقائق تسحق نفوس الثلاثة . وأبت الا الابطاء لتطيل عذابهم . إلى أن أشرقت طلائع الصباح ، وابتسم الفجر ، وزقزقت العصافير ساخرة . فانتزع نفسه من الجحر المظلم ، وفرّ هاربا دون أن يحيي زوجته او يقبل طفله . وتقاذفته

طرقات البلدة . وأبى الحظ أن يبسم له . فهو كلما وقف بباب فرن دوت في أذنه صرخة صاحبه : - لا ... لا نريد أجيرا ...

واستبدت به الخيبة . فمضى يجرّر في الشوارع نفسه . ما لهذه الافران اللعينة . ألا يفتح احدها في وجهه بابه . ونقم على الخبز وصانعيه . ولكن ما العمل ... والصغير يجب أن يأكل ... ! وسعى نحو المحال التجارية عله يجد مرتزقاً . فأصابه منها ما أصابه من المخابز . وفني النهار في ظلمة الليل . فتوجه إلى المنزل كسير النفس والنظر . وتعمد الابطاء كي يجد الطفل نائماً . فقد كان يخافه ، يخاف براءته وطهره ، يخاف ثقته العمياء به ، يخاف نظرته المترسلة تطلب الطعام وتنتظر « المعلّل » . وأخيراً وجد نفسه يطرق باب منزله . ففتحت الزوجة اللهفى . وإذا بها تصفرّ عجباً وهلعاً . إذ لم يكن هناك على الباب من أحد . أما رامز ، فكان قد اصبح بعيداً . لقد فرّ من زوجته وطفله ... لقد فر من شواهد بؤسه ... وكيف له أن يدخل الدار دون طعام ! غير ان الواقع ظل يلاحقه ، فمضى يتخبط في الديجور كالمشوار . وقاده الخطو إلى بيت معلمه السابق . فانهال على الباب بقبضتيه قرعاً . واستفاق الجيران واستفاق الحي ... ثم استفاق « المعلم » . ففتح الباب يتثاءب ويتمطى ، ويلعن ويدمدم . وما ان رأى رامز حتى هجم عليه كالوحش الكاسر ، وهو ينهال على رأسه بالضرب والشتائم . فحاول المسكين أن يتوسّل :

- هات خمس ليرات . إن لي عندك أجرة شهر ... ان طفلي جائع ! ! !

فتعاون الكل على طرده ...

- ليس هذا وقت دفع ... عد اليه نهار غد . يا لك من وقح !

فلوى أعنّة قدميه ، وسرى يتعثر بأذيال خيبته . وأعياه سرّ وقاحته . فقد كان يفهم ان المعلم فاق الوقاحة بتجويع طفل صغير ، ولم يهتد الى الغريب في المطالبة بحقه . وعرف الليل سجناً وعرفه الليل مجنوناً . وظنه المارة سكران ثملا . فقد اخذ يجوب الشوارع راكضاً وراء لا شيء ... وكان اللاشيء عدلا

افتقده بين الناس فلم يجده ! وطال عليه الظلام وهو لا يعرف استقرارا . فقد أبى الصبح أن ينبلج ... وابى الفرن أن يفتح أبوابه !!! وجعل يرقب النجوم. وكانت على عهدها تتغامز في السماء هزءاً بساكني الأرض ! ثم ابتدأت تبتسم لفحات من النور ينثرها المشرق ...

فتذكر زوجته وحنّ إلى طفله .. هل هما نائمان الآن أم لا يزالان في سهر؟ وتصور صغيره يصرخ بذلة :

ـ ماما ! أريد ان آكل !... لماذا لم يحضر لنا بابا الخبز ؟

وتصور ابنه يرتعش من حمى الجوع . وأمه إلى جنبه تبكي بصمت وتقول: لقد تأخر بابا ليحضر لك « زبدة » وليشتري لك لعبة حلوة ... فنم يا حبيبي الآن !

فيقفز الصغير طرباً وهو يتساءل :

ـ وهل ستكون مثل لعبة ابن الجيران ؟

ثم يطرق فجأة ويهمس بصوت مخنوق :

ماما ...! لماذا ابن الجيران يأكل الزبدة والمربى كل يوم وأنا لا آكل ... لماذا يحضر له ابوه اللعب وأبي لا يحضر ؟ ...

فتشهق الام بالبكاء . وتتشنج أعصابها في ألم هائل . فيبكي الطفل لبكائها ويصرخ ...

ـ أريد بابا ... أين بابا الآن ...؟

تصوّر رامز كل ذلك . فاضطرم بالثورة رأسه . وانطلق يعدو في الشوارع من جديد، وكان الصبح قد أسفر . إلى أن استقر به العدو على باب الفرن، وكان المعلم يصرخ على عادته :

يا كلب يا خنزير يا بليد .. اشتغل .

فصاح رامز بانفعال :

ـ اعطني اجرتي ، طفلي يمزّقه الجوع ...

فانفجر المعلم صارخاً :

- انت هنا أيضاً ... اطردوه !!!

وما أتمّ كلمته حتى تدحرج أمام دفعة من قبضة رامز ، الذي اندفــع إلى الصندوق مختطفا ما وقعت عليه يداه من خبز ونقود .. ثم عدا هارباً لا يلوي على شيء . فما توقف إلا ليشتري « زبدة ومربّى » ودمية صغيرة ، انطلق بها إلى البيت بنشوة . وما أن فتح له الباب حتى هجم على طفله يوسعه القبل ويلقي اليه بالهدية . فما صدق الصغير عينيه . بل رنا إلى أبيه يسأله بفرحة :

- بابا ... كل هذا لي ؟؟!

وأخذ يرقص طرباً وهو يضم الدمية إلى صدره . ثم مدّ إصبعه ليذوق المربى والزبدة . وإذا بالضجة تصدم الباب . وإذا بالدرك يدخلون ومعهم « المعلم » . وانهار الاب وهم يضعون القيد في يديه . وصرخ الطفل وهم يسلبونه كنزه :

- جوعان ... اريد ان آكل « زبدة ومربى » ... أريــد لعبتي ... أريد بابا ... !!!

ولكنهم مضوا بأبيه لا يعبأون . يواكبهم صبية الحيّ ووشوشات النساء . وكم مستطلع عاد يدمدم بسخط :

- اللص ... اللص ...

غير ان رامز كان لا يحرك ساكناً . وآسروه يدفعونه بأيديهم وهو كالمأخوذ لا يبدي ولا يعيد . إلى أن اصطفق الباب وراءه . وصرّ المفتاح في القفل ، وسكن كل شيء . فعاد إلى نفسه واذا به حبيس نظارة السجن . وحيداً بين جدرانها الخرساء . وتبدّى له كل شيء على جليته . فحاول التفكير فلم يستطع . وحاول التألم فعصاه الاحساس . وأراد البكاء فخذله الدمع . وأجدب شعوره وقد فنيت نفسه في العذاب . فمضى يذرع الجحر الضيق بخطوات مجنون ، ويئن بصوت كزئير السباع . وقضى الليل على تلك الحال . وطلب للاستنطاق فما أفاد ولا أجاب . فثبتت عليه التهمة وكم كان لها من شاهد عيان . وغلّ يديه القيد من جديد .

ومضى به الدرك الى السجن . واصطفق وراءه الباب ثانية . فاذا هو في عـــالم لا كالعالم ، حكامه « عرفاء » و« أنفار » ، ورعاياه قتلة ولصوص ! وجاءه احدهم يفتش جيوبه ، وقاده آخر يحلق شعره ، ودفعه ثالث الى « قاووش » مظلم ، فإذا هو بين عديد من الاشقياء يستطلعون خبره . ونظر حوله فلم يجد سوى الجـــدران الرطبة تندب حظها وحظه ، والهواء القذر يخنق أنفاسه ، والعفونة النتنة تسحق حواسه ، وكان كل شيء هادئاً ساكناً ... إلا عواصف مـــن الذكريات تكتسح الافئدة ... وجيوشاً من الحشرات تكتسح الاجساد !

وجعل الليل والنهار يتطاردان في حلبة الزمن . وكان رامز على هامش الحياة ، لا يشعر بشفق أو غسق ! كان شبه حي في قبر الاحياء ... يتألم فلا يجد لألمه متنفسا ، ويشقى فلا يلقى لشقائه العزاء ! تذكر زوجته وطفله ، وتذكر حياته الماضية كلها . فمزقته من الحسرة الأسنة ، وعرفه رصفاؤه شبحاً يجثم في زاوية « القاووش » ، ساهماً شارداً ... محدقاً في الحائط بنظرة باكية . واشد ما عذبته الافكار : فمن أين ستعيش أسرته وهو رهن القيود . انه عامل فقير لا يأكل يوم لا يشتغل . فكيف به وهو سجين واسرته بلا معيل ؟ ! !

وزحفت على هيكله الايام ... وهو في زاويته لا يفارقها إلا الى الفراش ولا يفارق الفراش إلا اليها ، وطلب للجلسة فحوكم ، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر ، وكان اليوم يمر بطيئا فيخاله شهراً ، ويمر الشهر فيخاله السنين الطوال . وجعل يفرض لحياة عائلته شتى الفروض ولم يكن ليزوره في السجن من احد ...

وكرت الأيام والاسابيع ...

فاقتربت ساعة الخلاص ...!

* * *

سالت السماء نوراً وانسكب الهواء عطوراً ...

فوقف يملأ رئتيه بالنسيم المنعش ويتملى من حرارة الشمس . وكان صدى اصطفاق الباب لا يزال يلاحقه ، وكانت أصوات السجناء لا تزال ترن في أذنيه ..

obeikandi.com

ـ مع السلامة يا رامز ... هنيئا لك بالحرية ! ! !

ونظر الى يديه فلم يجد القيد يغلها ... وتلفت حوله فلم يصطدم نظره بالجدران ولا القضبان الحديدية ... وافتقد الحراس فلم يجد عليه من الدرك رقيبا ... فتنفس الصعداء من جديد ! ! ! وانطلق الى البيت متخذاً من الحنين جناحـا ، واستفزه الشوق واستخفه الطرب ... فمضى يتصور طفله وقد رآه ، يقفز اليه وهو يغرد بفرحة طاغية :

ـ أهلا وسهلا يا بابا ؟ ! أين كنت يا بابا ؟ !

وتصور امرأته تعانقه بشوق وحنان وهي تهمس :

ـ الحمد لله على السلامة يا رامز ... يا حبيبي ! ! !

وتدفق بالشوق والحب دمه ...

ووجد نفسه على باب منزله ...

فارتعشت ركبتاه ، واستعرت خفقات قلبه ، واضطرب أمام الفرحة المنتظرة ! وأراد أن يفاجيء ذويه . فدفع الباب دون جلبة . ودخل وهو يحبس ضحكة كادت ان تنطلق مجلجلة . وإذا به يقف وقد جمد الدم في عروقه . فهناك في ركن الغرفة المظلمة كان يتمدد هيكل عظمي ، لم يعرفه ... بـل لم يرد أن يعرفه ! شبح هامد مسجى ، تكسوه صفرة الموت الرهيبة . عظامه النافرة تكاد تمزق الجلد المهلهل ... وثيابه الرثة تكشف عن جسده المتآكل .. ! أهذا هو طفله ؟ ؟ ! ! ! أهذا من كان زهرة الحي وبلبل البيت .. ؟ ! وأين أمه ؟ ؟ ؟ أين من كانت له الملاك الحارس ....! ! !

تقدم رامز متخاذلا ، وجثا أمام طفله المسكين . كان يبدو ان الحياة فارقته ، لولا رعشات في الصدر خفاف . فحطمت قلبه الكارثة . وتهاوى مجهشاً بالبكاء . وإذا بالصغير يفتح عينيه بوهن ، محدقا في اللاشيء بنظرة جامدة . وأخذت نظرته ترق شيئا فشيئا ، إلى ان عادت إلى الحياة ، واستقرت على وجه أبيـه . وإذا بابتسامة هزيلة تشق دربها عبر الوجه الميت . وإذا بالطفل يحاول النهوض

وهو يهمس :

بابا . . . !

وكان رامز لا يشعر ... وكان يشعر بكل حواسه ... كان الحزن يسحق قلبه ... وكان الفرح يسحق قلبه . وما أن سمع وحيده يهتف باسمه حتى انفجر يوسعه القبل ويغسل وجهه بالدموع ، فتلوى الصغير وهو يرفع إلى أبيه يديه ويقول :

بابا .. أنا جوعان ...! ماما ذهبت تحضر لي طعاماً وتأخرت ...

وعلى وجهه سطر الالم اصفرار العذاب . فتلوى رامز ... وتلوى طفله .. ثم هتف من جديد :

— لا تبك يا بابا ... أنا أحبك ! !

وارتعش الجسد الهزيل ... وتراخى الرأس الصغير ، وتعالى نشيج رامز ..!

وعاد يتحسس طفله . لقد كان له طفل ... وقد كان ما كان ... !

وجعل يناديه .. وجعل يناجيه .. وأنّى للميت أن يجيب !

فحجر الالم قلبه . وجمد العذاب دموعه . ولمع في رأسه خاطر ... فانطلق يعدو إلى بيت معلمه القديم . لم يكن يعلم لماذا يركض ... بل لم يكن يدري أنه يركض ! ودفع الباب . واندفع إلى الداخل . وإذا بمعلمه في وضع فاضح مع امرأة .. وكانت المرأة زوجته .. أم الطفل الذي مات بينما هي تزني مع قاتله ! فانفجر ...! انفجر شعوره ... انفجر قلبه ... انفجر دمه ! وهجم على الباغي يضغط على عنقه بكلتا يديه .. ويضغط .. ويضغط ..

وهز الخبر الحي .. واندفع الرجال إلى الغرفـــة بالمشرات .. وجعلوا يجهدون لتخليص الضحية .

ولم يكن رامز يشعر بشيء من ذاك . لم يكن يسمع سوى صوت ابنه يصرخ وهو يموت « بابا ... جوعان » . لم يكن يرى سوى زوجته تزني لتطعم الصغير . لم يكن يرى سوى الدماء . وكان يضغط .. ويضغط ...

وانتفض المعلم ... ثم سكن إلى الابد !

فانتصب رامز يقهقه ويقهقه ..

وقبل أن يدرك أحد قصده ، وثب على زوجته مطبقا على عنقها بيديه وهو يقهقه ...

وحاولوا المستحيل لانقاذ الضحية . غير أن رامز كان كتلة من عضلات وأعصاب . كان قوة هائلة يجهلها البشر . وكان يضغط ... ويضغط ...

وبدا للجميع أنه جنّ . وخاف كل على نفسه ! فهرب البعض وارتعد البعض . وشهر أحدهم مسدساً أطلق رصاصه على القاتل ! فسالت دماؤه ... وظل يضغط ويضغط ... الى أن انتفضت انتفاضة الموت ، وتهاوت إلى الارض بلاحراك . فهوى إلى جنبها يلفظ أنفاسه ...!!

obeikandl.com

أنا المحروم

أربعة قهوة سكر زيادة ...

ـ واحد شاي ... ماء ثلاثة ..

لماذا.. لماذا أنا ملزم بخدمة كل هؤلاء ؟ ! لقد بدأ رأسي يتهاوى على منكبي، واوشكت ان اتهالك على ارض المقهى اعياءاً . والزبائن ما زالوا يصيحون :

ـ أين الكوتشينة يا ولد ؟

ـ اثنين عصير .. ثلاثة « عصملي » .. واحد سادة ..

أسرع .. اسرع يا عادل . عليك ان تلبي جميع الطلبات . تجلد .. اصبر .. لا بد ان يأتيك الفرج ..! اما الآن فاعرف قدر نفسك . ما انت إلا خادم .. ندل مقهى ..

ولكن، السهرة استطالت الى ما بعد منتصف الليل . لقد تراخى جفناي عن ضنا . واذناي ملأهما طنين ودوي . رحماك ربي .. اما لهذا الليل من آخر؟ رحماك يا إلهي .. ماذا جنيت لأستحق الجلد بكل هذه السياط :

نارة يا ولد

عجل هات نفس .. نارجيلة !

واحد كازوزه .. اثنين كولا ..

ـ هنا يا ولد .. إذهب اشتر لي علبة سجاير !

وانا .. الا استحق لحظة راحة ..؟ إنكم تسترخون على كراسيكم في اطمئنان مترف . وتعتمدون بمرافقكم على الموائد لامبالين ، نافثين في الاجواء عبير دخانكم

الانجليزي ، او عازفين على النراجيل الحان البطـالة والفراغ . إنكم تقتلون اوقاتكم لهواً ، تلعبون الورق والنرد ، وتصفعون الأجواء بقهقهاتكم العابثة . بينما أنا .. أنا الانسان الذي من طينتكم ، أركض من مائدة إلى مائدة، خادماً رغباتكم اللجوج ، أحترق كيما تنشقون البخور ...

كفاك غياً يا عادل . إنما تعمل لقاء معاش . اجرة تقبض بدل خدمتك . أشكر الله على ما أنت فيه . واتعظ بألوف العاطلين عن العمل .

أجل ! انا لست بالمتبرع خدمة . لكن جاراً لي يملك حماراً . هو يستخدمه النهار ويريحه الليل . وملء جوفه يطعمه .. وانا ابن آدم . الا كرامة لي قدر حمار ؟ مذ الساعة السابعة صباحاً انا اعمل . والآن هي الثانية عشرة ليلا . خمس عشرة ساعة قضيت على ساقي لا اهدأ . خمس عشرة ساعة ...!

وأجرتك ... أنسيت ما تستوفي من المال ؟

اجرتي .. اية اجرة .. خمسون ليرة في الشهر . في بيروت .. خمسون ليرة .. اين انت ايها الموت . لماذا تهرب مني هكذا . إن وجهك القبيح لأجمل الف مرة من الحياة .. هذه الحياة . كل شخص يعتلي متني :

ـ تعال يا ولد ، إذهب يا ولد ، هنا يا ولد ، هناك يا ولد .

انا الولد .. لقد ربيت شاربيّ كيما يعلموا اني رجل . ولكن يظهر ان عيونهم لا كالعيون . فلقد ظللت في عرفهم ولداً .. رغم رجولتي . رجولتي .. آه .. هم لا يعترفون بها . فقد حدث ذات يوم ان مرت سائحة اميركية ، واقتعدت إحدى كراسي المقهى . كانت جميلة شقراء ، تبرز ثيـابها الضيقة محاسن جسدها الشهي ، وتنحسر عن جيد من العاج وساقين من الرخام . حدّق معظم رواد مقهانا في تلك الغادة ، ومضوا يلتهمون بنظراتهم ما ظهر من مفاتنها وما بطن ، متقاذفين كلمات التعريض بها ، في قحة وخلاعة . اما انا فقد شدهني منظر تلك الحسناء . فوقفت أتملى من حسنها كما يفعل الآخرون . لكن خبيثاً من الزبائن ضبطني وانا على تلك الحال . فأطلق « ضحكة رنانة » وهو يديح

ساخراً :

انظروا إلى الولد . انه يتأمل (البضاعة) هات أسمعنا قصيدة غزل « يا قيس » . .

وما لبث المقهى أن ضجّ بقهقهات القوم يسخرون مني . وتبارى ثقلاء الدم في التنكيت عليّ والتعريض بي . حتى اضطروني أن أتوارى خلف سيل من العرق البارد انبثق من جبيني .

ورجعت إلى العمل أغرق فيه الضيق والنقمة ، بينما ظلت نظرات القوم تلاحقني هازئة . ولم أعد أسلم ولما أسلم حتى اليوم ، من كلمة سخرية لاذعة يحاول ثقيل تذكيري فيها بما تم يومذاك .

وها هم زبائن المقهى يقتعدون الكراسي في استرخاء ، معربدين مقهقهين ، يطلقون النكات كيفما كان ، ويصيحون كلما استحسنوا ذلك :

ـ ناره يا ولد . . واحد ساده . . اثنين شاي .

لا ريب أنهم يحسون شعور العظمة والاستعلاء عندما يصرخون بذلك . فهم يؤمنون في قرارة نفوسهم أنهم لم يخلقوا إلا ليحكموا أمثالي من المخلوقات . إن لهم مفهوماتهم الخاصة ـ أولئك المترفون . إن لهم عالمهم الواسع البهيج . لا ريب انهم يعرفون من المرأة اضعاف ما اعرف . انا اعلم ذلك جيداً . . اعلمه من بريق عيونهم ، عندما ينظرون الى اية عابرة سبيل . ولكنهم انانيون . . يريدون ان يكون لهم كل شيء . . يريدون ان يحرموني من كل شيء ، حتى من النظر العابر الى حسناء .

الدفء . . الدفء اللذيذ الخدر . . لا ريب انه عند المرأة . كنت اشعر كلما استلقيت على فراشي وبدأت النوم ، انه ينقصني شيء . . شيء حيوي يملأ كياني . . شيء هو انثى . . بل هو هراء . متى كنت استطيع حصر كل ما ينقصني ـ انا المحروم ؟ رباه . لماذا خلقتني ؟ لماذا ترى احيا ؟ لماذا ؟؟

لا يا عادل . . لا تيأس من الدنيا . ها هم الزبائن بدأوا يتبعثرون . فقد انفرط

عقد السهرة . ابشر .. بعد قليل ستتمكن من الذهاب الى بيتك .

بيتي .. اي بيت . هو قبو مدفون تحت سلم احد المنازل . كان اصحاب الدار يربون فيه الدجاج . غير ان الدجاج اخذ يموت نتيجة الظلمة والرطوبة والهواء الفاسد في ذلك القبو ، عنده اخلاه رب الدار مقرراً تأجيره ، وهكذا فرض عليّ ايجاراً قدره خمس وعشرون ليرة في الشهر ، ثمن انتحاري فيه .

واخذت الانوار تنطفىء في ذلك المقهى من بيروت مصباحاً مصباحا ، الى ان غلفته الظلمة ، ومزق السكون دوي اغلاق بابه المعدني ، ثم انفصل عن حالك المبنى شبح دقيق العود فارع القامة ، مضى يخبط في الديجور كالسكران تعتعه الشراب .

ها قد انتهيت اخيراً يا عادل ، فانتبه في مشيتك واشدد من خطوك ، أحدثتك نفسك بالنوم في الطريق ؟

وهل انا خير من اولئك المستلقين على رصيف الشارع يلتحفون السماء ، او ينحشرون في سلالمهم كالقوقعة حذر البرد ، هم على هامش الحياة .. كلنا على هامش الحياة نحن الفقراء . نحن من يعصر ويبني ويحيك ، ولغيرنا الشراب والقصور والحرير . وذلك الشاب المتمدد على اقدام تلك العمارة الضخمة ، اذ يسند رأسه في غفوته تلك الى حذائه المتهرىء ، ملقياً ذراعه على حجر كالح الخشونة . لا بد ان ذلك المسكين يحلم الآن بانه يعانق حورية فاتنة . فلسعد الحجر . اما فوق ، في تلك الدور المترفة ، حيث يعيش الأسياد ، كم من آهة لذة توشوش النسيم ، وكم من نور احمر يحمي سرير حب . هناك حيث يعيش الأسياد ، كم من رجل الآن يحتضن الأنثى ، وكم من شفاه تمتص وتمنح الرضاب . كل ذلك فوق .. في تلك الدور المترفة . وانا ، أنا وحدي .. اسري في الشارع الكئيب . يبدو ان الشارع لن ينتهي ، فهو يستطيل ويستطيل . أين منزلي ، اين اصبح منزلي ؟ انني أريد ان اصل ، هذا النوم أنهكني ، أريد ان انعم بدفء الفراش . هراء ، أي فراش ؟ ان ما تستلقي عليه كان بالتأكيد فيما مضى فراشاً ، غير ان ذلك

كان يوم زفت أم جدك الى ابيه . ألم يقل والدك مرة ان هـــذا الفراش شيء تذكاري تتوارثه العائلة ؟ كان احرى بك ان تضعه في المتحف ، هذا الــــذي تدعوه فراشك .

إنني على اية حال انام عليه ، وهو خير من الرصيف ، ما في ذلك شك ، غير اني اشتاق فيه الى امرأة – اية امرأة .

أعدنا الى التفاهات يا عادل . أنسيت يوم زرت احداهن، في سوق النخاسة؟

كان ذلك يوم الانتخاب . فرضت الحكومة على المقاهي الاغلاق . فربحت من العيش يوم راحة . واغراني بعض الرفاق فقادوني الى هناك . وما ان دخلنا الحي حتى لوثت أنفاسنا ريح نتن ، وصدمت أنظارنا نماذج منهن اقتعدن الكراسي امام ابواب مواخيرهن ، كاشفات للمارة سيقانا مترهلة ، وصدوراً مسترخية ، وصوراً رخيصة مبتذلة . وكن يدعون الرجال اليهن بالكلام اللين تارة ، وطوراً بالشتائم البذيئة من اثقل عيار . لا ادري كيف طاب لنا يومذاك أن ندخل احد تلك المواخير ، كلما اذكر اني اجترحت المعصية في ميكانيكية وخرجت احث الخطى مبتعداً ، وانا احاذر النظر الى خلفي لئلا ارى معرض اللحم القذر ذاك . غير اني دفعت الثمن ، دفعت الثمن لا ثلاثمائة وخمسين غرشاً فحسب ، بل خمسين ليرة أخرى للاطباء والصيادلة ، بعد ان ابتليت اثر زيارتي تلك بالمرض السري . لقد دفعت غالياً ثمن ما اقترفت من زلة ، اذ تشاجرت مع الحانوتي والبقال ومالك القبو ، حين طلبت اليهم ان يصبروا على ما استحق لهم عندي شهراً . لم يكن معي مال فصبروا راغمين . وحتى الآن وقد مضت على الحادث سنة ، لم استطع ايفاء كل ما علي من ديون .

يا لها من ذكريات يا عادل، تلك التي تعصف بمخيلتك . الا ترى انك قد وصلت الى منزلك . . لى قبوك . ها هو فراشك التاريخي ، أما زلت تشتاق فيه إلى امرأة ؟

انا لا اريد تلك البائسة جسدها للناس متاعاً . إنما اريد إنسانة .. إنسانـــة

تشاركني الآلام والآمال .. إنسانة تدفع عني كابوس الوحشة وهموم الحياة . اريد حناناً وعطفاً .

ولماذا لا تتزوج إذن يا عادل ؟ اراك تفكر في الزواج جدياً ..

خمسون ليرة هي كل ما اقبض معاشاً ومالك القبو يأخذ نصفها ايجاراً. خمس وعشرون ليرة يبقى لي ثمن الأكل والملبس . ماذا سأفعل بها .. هذه الدريهمات ؟

حتى الزيتون اصبح غالي الثمن عسير المنال . ليتني كلباً في ذ ة غني . آه لو تنفع ليت !

لو تنفع (ليت) لما خسرت في الرهان ذلك الاسبوع . كان (بساط الريح) قبل ان اراهن عليه اسرع خيول السباق . فما ان دفعت الليرة وبدأ شوطه الجديد حتى اصابه نحسي بسهمه ، فتقهقر عن الفوز لغير انداد . لو تنفع (ليت) لربحت الخمسين الف ليرة ، يوم وجدت ورقة اليانصيب على قارعة الطريق . لو تنفع (ليت) لبقيت في رحم امي او صلب ابي ، وما عرفت الدنيا !

تسلل ايها النوم الى جفنيّ ، تعال خلصني من هذه الافكار .

عيناي ، ما لهما تضجان بالانوار ؟ ترى اي شيء يحدث لي الآن ، أهو مخاض روح ؟ ارى انني بدأت خلقاً جديداً . مسكني الحقير ، ثيابي الممزقة ، مهنتي الشوها ، كل ذلك بدأت احبه بافتخار ، فهو رمز رجولتي ، هو اوسمة النصر في معركة الحياة ، النصر على الألم . ولكن من قال لي ذلك .. من ؟؟ آه ، لقد تذكرت ، إنها هي - السائحة الاميركية . ها قد بدأت تهرف يا عادل ، فمتى حدثتك تلك الحسناء ؟ متى ، متى حدثتني ؟؟ الآن ، ها هي تدخل مسكني ضاحكة ، وشعرها الاشقر حول وجهها الفتان هالة من النور الذهبي . تعالي ، تعالي إلي ، فكم انتظرتك يا حبيبتي ، وكم انتظرت ! نامي هنا بجانبي في الفراش . أسندي بذراعك البض رأسي . ها انت ترين اني اتكلم الانجليزية بطلاقة . اوه ، لم اكتشف ذلك إلا الآن . ما اجملك يا عزيزتي ، ما ابدع جسدك الحنون

الدافيء ، أن يشعر القريب منك ببرد الشتاء . ما اسعد الحياة معك ، هذه حياة! يا عزيزتي ، يا عزيزتي ، احبك . كلا ، لا تتكلمي ، لا وقت لدينا الآن للكلام .

ولم اشعر بمرور الساعات تترى على شريط الزمن ، الى ان شعرت بيدها اللطيفه تدغدغ جبيني ، وصوتها الحار يهتف بي ان قم انه الصباح . ففتحت عيني واذلاشيء ، اللهم الا قطة تموء . لم يكن ما رأيت الا حلماً . فنفضت عني غبار النوم ، وارتديت ثيابي على عجل ، ثم توجهت الى المقهى بعد ان عرّجت على بائع فول . وبدأت يومي الجديد ساخطاً يزقني الحقد ، فما منع الاحلام ان تصبح حقيقة ؟ وعاد الزبائن يصرخون بي في استعلاء :

— نارة يا ولد ، واحد قهوة ، اثنين شاي .

فكنت البي الطلبات على مضض ، وفؤادي يضطرم بالغضب الهائل . واذا بالضجة تملأ الشوارع ، واذا بالهتافات تشق عنان السماء :

نريد محو البطالة ، نريد تحديد يوم العمل ، نريد زيادة الاجور!

لقد كانت مظاهرة عمال . فخرج معظم رواد المقهى يتفرجون عليها ساخرين ، بينما اثار الفقراء من المارة عاصفة تصفيق . غير الشارع مالبث ان دوى بصفارات البوليس ، ونشب بين المتظاهرين ورجال الامن اصطدام هائل . وكانت كراسي مقهانا في متناول ايدى الطرفين ، فانـــدفعوا يتقاذفون بها في عصبية وهياج . واختلط الحابل بالنابل ، ففر صاحب المقهى وجميع زبائنه وخدمه ، ولم يبق وسط هذا المعترك الصاخب سواي . كانت الحيرة تشد بقدميّ الى الارض ، بينما راحت جميع طبول العالم تضج في رأسي دوياً . احسست في تلك اللحظة بجميع ما ابتليت به في حياتي من احتقار وشقاء ، وشعرت بحرماني دامياً كما لم اشعر به من قبل ، فعصفت بأعصابي النقمة المستطيرة ، وهجمت وانا من نار الثورة على بركان ، احطم الموائد والكراسي والاقداح ، وأضرب وألكم كيفما اتفق ذلك . واشتد الضجيج وعلا الصياح ، الى ان مزقته بضع طلقات نارية ، ثم بدأ كل شيء يهدأ ، اللهم الا عدة رجال وجدت نفسي بينهم

وقد احاط بنا رجال الامن في حلقة محكمة .

وما ان اقفل السجان علينا الباب ، حتى التفت الى اقربهم الي اسأله عن سبب مظاهرتهم ، فمضى يحدثني عن عالم يحكمه العمال والفلاحون ، لا مكان فيه لمستثمر او محروم . فاستفزني الطرب ، وسألته بلهفة عن سبيل الوصول اليه ، فأجابني بثقة وحزم :

- ألم تسمع النداء مجلجلا : يا عمال العالم اتحدوا ...

الحقوق محفوظة للمؤلف

opeikandi.com